ذكر بقية الخبر عن دولة الامير ابي عبد الله

القايم بامر الله

قال ابن القاضي انّ السلطان ابا عبد الله القايم اجتمع بالشيخ الصالح ابي عبد الله محمّد بن مبارك المتقدّم الذكر بموضع يقال له اقّ من بلاد السوس الاقصى فتكلّم معه ثمّ رجع الى قراره من بلاد درعة وذلك عام خمسة عشر وتسعماية وفي العام المقبل بعده وهوعام ستّة عشر بعث له فقهاء المصامدة وشيوخ القبايل واستدعوه الى تقديمه عليهم وتسليم الامر اليه فلبّى دعوتهم واجاب رغبتهم وجاء معهم الى قرية يقال لها تدسي قرب تارودانت فبايعه الناس بها واصبحوا معه بقلوب متّفقة واغراض على الجهاد مجتمعة وموافقة فندب الناس الى مقارعة النصارى واجلائهم عن مرسى تفتنت فانتدب معه جموع حافلة من المسلمين وعمدوا الى النصارى فناوشهم القتال فاتاح الله له النصر ومزّق اشلاء الكفر بمخالب الظفر واخرج حيّة الغيّ من حجرها واعاد شريد الدين الى وطنه فلمّا راى ذلك المسلمون تيمّنوا بطلعته وتفاءلوا بطايره الميمون وزادهم ذلك محبّةً في جانبه وتعظيماً لمكانته ثمّ انّه رجع الى مكانه من تدسي المذكورة فوقع بينه وبين بعض الرؤساء هنالك منافرة ادت الى ارتحاله عنها ورجوعه الى درعة فلم يزل بدرعة الى عام ثمانية عشر فرجع الى مكانه من تدسي واطمانّت به دارها وازال الله ما كان ازعجه عنها ثمّ دعا الناس الى بيعة اكبر ولديه ابي العبّاس احمد الاعرج فبايعه الناس ثمّ جاء اشياخ حاحة والشياظمة لما بلغهم من حسن سيرته ونصر لوائه فشكوا له امر العدوّ الكافر في بلادهم وشدّة شوكته عليهم وطلبوا منه ان ينتقل اليهم هو وولده وليّ عهده المذكور فاجابهم الى ذلك وخرج معهم هو وولده الى محلّ يقال له افُغَل من بلاد حاحة وترك ولده

الاخر الاصغر ابا عبد الله محمّد المهديّ بالسوس يمهّد به المملكة ويقعّد اساس الملك ويباكر مع العدوّ ويراوحه وبقى الامام ابوعبد الله القايم بمكانه من افُغَل الى ان توفّى به رحمه الله عام ثلاثة وعشرين وتسعماية وفى هذه السنة استولى الترك على الجزائر وتلمسان وما والاهما وتملّكوا مدن المغرب الاوسط ولم يكن لهم قبل ذلك تملّك فى المغرب ولاصولة وسبب ذلك انّ الشيخ الامام العالم ابا العبّاس احمد بن القاضي الزواويّ كانت له همّة شديدة فى غزو الكفّار وقوّة شكيمة عليهم وله مع ذلك شهرة عظيمة فى بساط المغرب الاوسط وجباله وفيه قال الشيخ سيّدي عبد الله الهبطيّ مارايت احداً قام قيام الاثاثة النبويّة على اصلها من سيرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الا رجلَيْن سيّدي احمد بن القاضي فى زواوة وسيّدي سعيد بن عبد المنعم فى حاحة ولمّا راى ابو العبّاس المذكور قوّة شوكة النصارى الكفّار وانتشارهم فى بلاد المغرب وضعف المسلمون عن مقاومتهم كاتب الترك وعرّفهم عزّة هذه البلاد لما يسمع من شدّة الاتراك في المعارك ونجدتهم في الحروب والمضايق وارهابها للكفرة فقصد بحسن نيّته ان يرفعوا من عزّة الاسلام ما انخفض ويقوّوا من امره ما ضعف وقال انّ بلادنا بقيت لك اولاخيك اوللذئب فاقبل الترك نحوه مسرعين وجعل هو يحضّ الناس على اتباعهم والانخراط فى سلكهم والسمع والطاعة لاميرهم عروج التركمانيّ الذي هو الباي فيهم فدخل الترك الجزائر وتلمسان ثمّ انهم مكروا بالشيخ وغدروا به خوفاً على رياستهم فقتل رحمه الله شهيداً بعد الثلاثين والتسعماية ولمّا اخذ الترك تلمسان اكثروا فيها الفساد ونهب عروج اموال اهلها وادار عليهم دايرة البوار والسوء ومزّقهم كلّ ممزّق وخرج عنهم الى بنى يزناسن فاشفق منه اهل تلمسان وخافوا منه اذا رجع اليهم ان يستاصلهم فجاؤا الى الشيخ الامام عالم تلمسان اذّاك ابي العبّاس احمد بن ملوكة فشكوا اليه ما نابهم منه وما يخافون من اوبته فانقبض الشيخ انقباضاً عظيماً ثمّ ضرب الارض بيده وقال والله لايرجع لتلمسان ابداً اعتماداً منه

على الله تعالى فكان كما قال وقتل عروج ومن معه من الاعلاج والاتراك فكان الشيخ ممّن قال في حقّه الصادق المصدوق صلّى الله عليه وسلّم انّ من عباد الله من لواقسم على الله في شيء لابرّه ولمّا توفّى السلطان ابو عبد الله بالمحلّ المذكور من بلاد حاحة دفن هنالك بازاء ضريح الوليّ الصالح والقطب الواضح شيخ الطريقة ومعدن الحقيقة ابي عبد الله سيّدي محمّد بن سليمان الجزّوليّ مؤلّف دلايل الخيرات وذلك قبل ان ينقل الى مرّاكش ولمّا نقل الشيخ الجزّوليّ على يد السلطان ابي العبّاس الاعرج نقل السلطان المذكور اباه المذكور ايضاً فدفن بازاء ضريح الشيخ الجزّوليّ حيث هو اليوم من مرّاكش وكان سبب نقل الجزّوليّ انّ عمر المغيطيّ الشياظميّ ويعرف بالسيّاف قدم بعد موت الشيخ مظهراً طلب ثار الشيخ الجزّوليّ ممّن سمّه اذ مات مسموماً وصار يدعو الناس الى نفسه واخرج الشيخ من قبره وصار يحمله واينما توجّه به ينصره الله على اعدائه الى ان قتل عمر المذكور في قضيّة طويلة فلمّا ولى الاشراف خافوا ان يثور عليهم احد فيفعل مثل ما فعل عمر فنقلوه الى مرّاكش وقيل انّ الحامل لهم على نقله انّه ذكر لهم انّ تحته كنزاً فتعلّلوا للحفر عليه بقصد نقله الى بلادهم والله اعلم وكان ذلك في حدود الثلاثين والتسعماية والامر لله سبحانه

ذكر الخبر عن دولة السلطان ابى العبّاس

احمد المدعوّ الاعرج رحمه الله تعالى

ولد رحمه الله حسبما ذكره ابن القاضي عن بعض الثقات عمّن وثق به عن عبد العزيز بن يعقوب الاحسن سنة احدى وتسعين وثمانماية وبويع باشارة ابيه عام ثمانية عشر وتسعماية ولمّا اخذ له والده البيعة على الناس وتوفّى صرّف همّته الى تمهيد البلاد واقتناء الاجناد وتعبية الجنود الى الثغور واستكثر من شنّ

الغارات على العدوّ الكافر بتالمست واسفي وكان النصارى قد عاثوا في السواحل مفسدين وخيّموا بشطّ البحر من كلّ جهة وناحية فاجلاهم من تلك النواحي وطهّر الله من نجاسنهم تلك البقاع والمناحي ويقال انّ النصارى دمّرهم الله لمّا راوا ما وقع بمن منهم بالسوس من القتل والسبي اخلوا ازمّور ورباط اصيلا من غير قتال فسارع جماعة من ابطال المسلمين وفيهم الشيخ ابو عبد الله محمّد بن ساسي والشيخ ابو محمّد عبد الله الكوش الى ثغر ازمّور يحرسونه حتّى يجتمع فيه من المسلمين ما يقمع الكفرة ويذود عن بيضة الاسلام مخافة ان يرجع اليه العدوّ بعد ذلك فكان من قدر الله انّ العدوّ رجعوا اليه فاخذوا جميع من وجدوه هنالك من المسلمين واسروا الشيخين المذكورين الى ان افتديا بعد ذلك ويقال ان الشيخ الكوش لمّا افتدي وعزم على الخروج وكان ملكاً لامراة نصرانيّة قالت له انّ عندي كتباً من كتب المسلمين فخذها فجعلها الشيخ في قفّة وحملها على راسه فكان من جملة تلك الكتب تنبيه الانام المعروف في الصلاة على خير الانام صلّى الله عليه وسلّم فكان ذلك اوّل دخوله لهذه البلاد على يد الشيخ المذكور ثمّ انّ السلطان ابا العبّاس احمد الاعرج لمّا بعد صيته وانتشر في البلاد ذكره وعلا امره وملك جميع البلاد السوسية هرع الناس اليه وقصدوه من كلّ جهة ووفدوا عليه وكاتبه امراء هنتاتة وملوك مرّاكش ودخلوا تحت طاعته فدخل مرّاكش في حدود الثلاثين والتسعماية ثمّ انّ المرينيّ بلغه الخبر وهو بفاس بدخول الاشراف الى مرّاكش فاقبل عليه في جموع عديدة مع وزيره ابن عمّه مسعود بن الناصر فلمّا راى السلطان ابو العبّاس ما لا طاقة له به من المرينيّ تحصّن منه بمرّاكش وشحن اسوارها وملاها من الرماة ونصب الانقاض ودام الحصار كذلك ايّاماً فيحكى انّه قيل للشيخ العارف بالله القطب الكبير ابي محمّد سيّدي عبد الله الغزوانيّ وكان اذّاك قد استوطن مرّاكش بعد ما وقع له من بني وطّاس ما وقع من سجنهم له ولاصحابه وهو الذي لمّا توجّه الى مرّاكش من فاس اخذ برنوسه

في يده وجعل يشير به وهو يقول سيري بي ياسلطنة فاس الى مرّاكش ثمّ انّ اهل المدينة سئموا من الحصار فركب مع اصحابه وخرج من باب مرّاكش المعروف بباب الشيخ ابي العبّاس السبتيّ فوجد رماة المرينيّ يرمون من بالاسوار من اهل المدينة فوقف الشيخ يعتبر فجاءت رصاصة وضربته في صدره وخرقت الجبّة عليه والتصقت بلحمه وصارت كالعجين كانّها وقعت في صخرة صمّاء فقبض الشيخ عليها بيده وقال هذه خاتمة حربهم ثمّ دخل الشيخ المدينة فوردت الانباء على المرينيّ في تلك الليلة بانّ اولاد عمّه قاموا عليه بفاس ونبذوا دعوته فاصبح راحلاً عن مرّاكش وظهر مصداق ما قال الشيخ الغزوانيّ ولم يعد للمرينيّ وصول مرّاكش بعد ذلك ولا بلوغ لاحوازها بل كان السلطان ابو العبّاس يتلاقى معه في تادلا واحوازها وكانت بينهما معركة بموضع يقال له انماي وذلك في ذي القعدة من عام خمسة وثلاثين وتسعماية فافترقا على اصطلاح ثمّ حرّك له المرينيّ ايضاً فالتقيا بابي عقبة احد مشارع وادي العبيد فوقعت الهزيمة على المرينيّ وكان يوم الجمعة ثامن صفر عام ثلاثة واربعين وتسعماية ولمّا راى الناس ما وقع بين السلطانين المرينيّ وابي العبّاس الاعرج من التهالك على الملك والتقاتل عليه وفناء الخلق بينهم دخلوا بينهما بالصلح والتراضي على قسمة البلاد وحضر لذلك جماعة من العلماء والصلحاء منهم سيّدي عمر الخطّاب دفين جبل زرهون وسيّدي المحجوب المعروف بابي الرواين وكان رجلاً مجذوباً ذا قاق وانزعاج فجعل الناس يوصونه بالسكوت مخافة ان يفسد على الناس شغلهم فلمّا دخلوا على السلطان ابي العبّاس الاعرج واخيه محمّد الشيخ واعلموهما بما قدموا لاجله وجدوا فيهما فضاضة وغلظة وقلّة مبالاة بذلك وامتنعا من المساعدة على ما اراد الناس فحلف الشيخ سيّدي عمر الخطّاب لادخلتما فاساً ما دمت على وجه الارض فما دخلاها حتّى مات الشيخ الخطّاب بعد مدّة فكان بعضهم يقول لو علم بنو مرين شيأً ما تركوا سيّدي

عمر الخطّاب يدفن ولرفعوه في تابوت على الاعناق لانّه قال ما دمت على وجه الارض هكذا ساق هذه الحكاية صاحب ممتع الاسماع وذكر في شرح زهرة الشماريخ انّ الصلح انبرم بين السلطانين على انّ للاشراف من تادلا الى السوس وللمرينيّ من تادلا للمغرب الاوسط وانّ من حضر الصلح المذكور قاضي الجماعة بفاس ابو الحسن عليّ بن هارون المطغريّ بالطاء مطغرة تلمسان والامام الشهير ابو مالك عبد الواحد بن احمد الونشريسيّ وغيرهما من مشايخ فاس ويذكر انّه لمّا تواطأت كلمة الحاضرين على الصلح وعقدوا شروطه وهدأت الاصوت وسكن اللجاج اوتي بدواة وقرطاس ليكتب الصلح فما وضعت بين يدي احد من العلماء الحاضرين الّا وجم وانقبض ودفعهما عن نفسه استحياء في ذلك المحفل ان يكتب ما لا يناسب الجهتَيْن فقام قاضي الجماعة المذكور واخذ الدواة والقرطاس واساودها ووضعها بين يدي ابي مالك المذكور فانشا ابومالك في الحين خطبة مليحة ونسج الصلح على منوال عجيب واخترع لذلك اسلوباً بديعاً تحيّر فيه الحاضرون وعجبوا من ثبات جاشه وجموع قريحته في مثل ذلك المشهد العظيم الذي تخرّص فيه السن الفصحاء هيبةً واكباراً فقام قاضي الجماعة وقبّله بين عينيه وقال له جزاك الله عن المسلمين خيراً وما هو بأوّل بركاتكم يا آل ابي بكر وكان ذلك كلّه في حدود اربعين وتسعماية

ذكر الخبر عن خلع السلطان ابى العبّاس الاعرج

وسجنه الى وفاته وسبب ذلك

كان ابو العبّاس الاعرج رحمه الله من السلطنة وضخامة الدولة بالمحلّ الذي وصفناه قبل وكان اخوه محمّد الشيخ اصغر منه سنّاً تحت طاعته وواقفاً عند

اشارته وكان ابو العبّاس يستشيره ويفاوضه في مهمّات الامور وعظايم النوازل ويستضيء برايه في ظلم المعارك وكان الشيخ ثاقب الذهن نافذ البصيرة مصيب الراي حازماً في اموره فكانت كلمتهما واحدة ورايهما متّفقاً الى ان دخل بينهما الوشاة فافسدوا ما بينهما فتغيّرت قلوبهما وتبدّل الامر بينهما حتّى افضى بهما الحال الى المقاتلة فانعزل كلّ منهما بطائفة من الجيش وتقاتلا مدّة مديدة فغلب الشيخ على اخيه ابي العبّاس ونزع خاتم الملك من يده واستولى على جميع ما كان بيده من الذخائر والعدد وقبض عليه فسجنه هو واولاده بمرّاكش فكان يجري عليه الجرايات العظيمة ويعامله باحسن المعاملة وكان ذلك سنة ستّ واربعين وتسعماية فلم يزل ابو العبّاس في حكم الثقاف الى ان قتلت الاتراك بالسوس الاقصى اخاه محمّداً الشيخ المذكور كما سياتي في اواخر ذي الحجّة من عام اربعة وستّين وتسعماية فبلغ خبر مقتله لخليفته بمرّاكش القايد علّي بن ابي بكر ازيكّي فاسرع بقتل ابي العبّاس واولاده ذكوراً واناثاً وصبيةً جميعاً خشية ان يخرجوه اهل مرّاكش من السجن فيبايعوه وكان ابن مخدومه ابو محمّد عبد الله الغالب غائباً بفاس خليفة ابيه بها وولّي عهده من بعده كما ياتي ان شا الله مستوفىً وذكر بعضهم انّ الشيخ العارف بالله الولّي الشهير سيّدي ابا عمرو القسطلّي الاندلسيّ المرّاكشيّ دخل ذات مرّة على السلطان ابي العبّاس الاعرج قبل ان ينتزع الملك من يده فاغلظ له الشيخ في القول وواجهه بما يكرهه فلمّا خرج من عنده لامه بعض الاقارب وقال له كيف تواجه السلطان بهذا وحذّره من وثبات الملوك فقال له الشيخ ابو عمرو وكيف اخاف من المذبوح والله انّي لارى الذبحة في عنقه من الاذن الى الاذن والله ان لم ادفن جيفته ما دفنها احد فكان الامر كذلك فلمّا قتل ابو العبّاس واولاده لم يتجاسر احد على دفنهم حتّى دفنهم الشيخ ابو عمرو بمقربة من ضريح الشيخ الامام ابي عبد الله سيّدي محمّد بن سليمان الجزوليّ وهي القبّة القريبة من ضريح الامام المذكور وتسمّى بقبور الاشراف فكانت مدّة خلافة ابي العبّاس اثنتين وعشرين

سنة قاله ابن القاضي وكان بين قتله وقتل اخيه قبله ثلاثة ايّام ومن حجّابه محمّد بن علىّ الانكرطىّ ومحمّد بن ابي زيد المترازيّ ومن كتّابه سعيد بن علىّ الحامديّ رحمة الله تعالى عليهم اجمعين والملك والبقاء والدوام لله وحده

ذكر الخبر عن زيدان بن ابى العبّاس

الاعرج

قال صاحب درّة الحجال اختلف هل بويع لزيدان هذا بعد وفاة ابيه ابي العبّاس ام لا وقال صاحب زهرة الشماريخ كان ولده زيدان بسجلماسة فبويع بها فلم يتمّ له الامر وتوفّى سنة ستين وتسعماية

ذكر الخبر عن اوّليّة السلطان ابى عبد الله محمّد الشيخ

ابن امير المؤمنين ابي عبد الله القايم بامر الله

كانت ولادته رحمه الله سنة ثلاث وتسعين وثمانماية ويلقّب بامغار ومعناه بلغة البربر الشيخ ويلقّب من الالقاب السلطانيّة بالمهديّ لقّبه غير واحد من الايمّة به ونشا رحمه الله في عفاف وصيانة وعنا بالعلم في صغره وتعلّق باهله فاخذ عن جماعة من الشيوخ وبلغ في العلم درجة الرسوخ حتّى كان يخالف القضاة في الاحكام ويردّ عليهم فتاويهم فيجدون الصواب معه وقع له ذلك مراراً وله حواشي على التفسير وذلك ممّا يدلّ على غزارة علمه قال في المنتقى كان اديباً متفنّناً حافظاً حدّثنى شيخنا ابو راشد انّه كان ممتع المجالسة والمذاكرة نقيّ الشائبة عظيم الهيبة ما رايت بعد شيخى ابي الحسن علىّ بن هارون احفظ منه

للمقطّعات الشعريّة وكثيراً ما كان ينشد من الشعر بيتاً واحداً وهو

الناس كالناس والايّام واحدة والدهر كالدهر والدنيا لمن غلب

وكان حافظاً للقرءان وفهمه حيّداً ويحفظ ديوان المتنبّي عن ظاهر قلب خلافاً لصحيح البخاريّ ويستحضر ما للناس عليه ويقول في شرح ابن الحجر ما صنّف في الاسلام مثله عارفاً بالتفسير وغيره وكان يحضّ على المشاورة ويقول لاسيّما في حقّ الملك وينشد قول الشاعر

ومن جهلت نفسه قدره راى غيره منه ما لا يرى

ويقول ينبغي للملك ان يكون طويل الامل فان طول الامل وان كان لا يحسن من غيره فهو منه صالح لانّ الرعيّة تصلح بطول امله وكان يقول من طول امله اخذ تلمسان وسبتة وغيرهما . وكان سبب حفظه لديوان المتنبّي ما رايته في الدوحة قال مؤلّفها اخبرني الوزير المعظّم ابو عبد الله محمّد ابن الامير ابي محمّد عبد القادر ابن السلطان ابي عبد الله محمّد الشيخ الشريف المذكور قال لمّا غدرت قبيلة المنابهة لجدّي السلطان المذكور وانجاه الله من غدرتهم عرّف الشيخ ابا محمّد بن عمر بذلك فكتب اليه وهو يقول له اين انت من قول ابي الطيّب المتنبّي

غاض الوفاء بما تلقّاه من احد . واعوز الصدق في الاخبار والقسم

قال فعكف السلطان المذكور على ديوان المتنبّي حتّى علق بحفظه كلّه ولم يضرب عنه بيت واحد منه . وابن عمر المذكور هو احد اشياخ السلطان المذكور

وهو عبد الله بن عمر المطغريّ اخذ عن ابي عبد الله الغوريّ والونشريسيّ مؤلّف المعيار وغيرهما وكان علّامة حافظاً توفّي ببلّاد درعة سنة سبع وعشرين وتسعماية قاله سيّدي احمد بابا في كفاية المحتاج والذي عند صاحب الفوايد انّه توفّي سنة ثمان وخمسين وتسعماية وهو اشبه بالصواب وكان ابن عمرو شديد المحبّة للسلطان ابي عبد الله واخيه السلطان ابي العبّاس الاعرج وتقدّم في كلام صاحب الدوحة انّ بسببه كانت دعوتهما وقد وفد السلطان ابن عمر لسوس على تلميذه السلطان ابي عبد الله مراراً وقال ابو زيد في الفوايد اخبرني ابو محمّد عبد الله بن مبارك الافاونيّ قال سمعت من القاضي ابي عثمان الهوزاليّ يقول لمّا رجع ابن عمر المذكور من وفادته الى درعة وقد ساله فقهاؤها على اهل سوس فقال لهم وجدت فقهاءهم على ضعيف الفتاوي وفقراءهم على كثرة الدعاوي وعامّتهم على كثرة المساوي .ومن فوايد ابن عمر المذكور انّه سئل عن مدّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فاجاب بما نصّه وعليكم السلام معشر السادات ورحمة الله وبركاته وبعد فقد سالتموني عن مقدار الصاع النبويّ فاقول وبالله تعالى التوفيق مبلغ علمنا وآخر نظرنا مع طول بحثنا انّ من اراد معرفته تحقيقاً ومعرفة مقداره عياناً فليعدّ من الحبوب الشعير الوسط المقطوع الاطراف اربعة وثلاثين الف حبّة وستّماية حبّة وحبّة واحدة وثلاثة اخماس الحبّة لانّ الرطل ماية وثمانية وعشرون درهماً بالدرهم السنّيّ والدرهم السنّيّ خمسون وخمسا حبّة ضعّف ما في المدّ اربع مرّات تكن الجملة ما ذكرنا في الصاع آنفاً وانّما الجاني هذا العمل انّي لمّا جئت من فاس المحروسة بالمدّ والصاع وبنصفه لقيت شيخنا الفقيه الجليل ابا علىّ الحسن بن عثمان بن عبد الله التاملىّ فقال هل اتيتنا من فاس بصاع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وبمدّه فقلت قد اتيت بهما فقلت لصاحبي اخرجهما من حوايجنا فلمّا نظر اليهما ضحك كالمستهزئ فقال وربّ الكعبة ما جئت بمدّه ولا صاعه صلّى الله عليه وسلّم قد غلطوا فيهما غلطاً متفاحشاً فكانّه استكبرهما وكنت

اذاك معتقداً فاساً واهله فقلت اتق الله ايها السيد كيف تنسب الغلط الى مدينة الامام والمسلمين وهذا الطابع فيهما وقد جعلوا العالم النحرير على النجّارين فلا يبيعون صاعاً ولامداً حتّى ينزل طابعه فيه بعد امتحانه فقال لي ردّ الىّ بالك فشان غلطهم انّهم اعتمدوا قول الفقهاء في المدّ وزن رطل وثلث فوزنوها من الاشياء الخفيفة ارايت لو وزنوها من التبن كان اكبر واكبر فظهر لي صحّة قوله فرجعت الى طلب التحقيق فاعتمدت فيما ذكرت على ما ذكره ابو راشد القفصيّ والصاع الذي جئت به من فاس في ملئه ثماني عشر قبضة وملء هذا اثنتا عشر قبضة فبينهما مقدار الثلث فمن اراد الاحتياط فليخرج زكاة الفطر بالاكبر ويعتبر بلوغ النصاب بالاصغر . ومن اشياخ السلطان ابي عبد الله ايضاً الامام الشهير الصدر الكبير شيخ الجماعة بالصقع السوسيّ ابو علىّ الحسن بن عثمان التاملىّ وذكره في المنتقى وكان عالماً علّامة حافظاً متابّداً على التعليم مجانباً للراحة كثير السهر والتدريس والعبادة وكان اذا غلبه النوم يضع راسه على حجر لتوقظه قسوة الحجر ولا يستغرق النوم ويطول في مجلس تدريسه حتّى كان يقرا في المجلس الواحد اربع عشر دولة وكان حافظاً لتوضيح خليل لكثرة ملازمته في النسخ والتدريس يقال انّه نسخه اربعة عشر مرّة وكان حين كونه بفاس يتعيّش بنسخه ونسخ الرسالة قال المنجور في فهرسته حدّثنى بذلك كلّه ابن اخيه الثقة المشارك النجيب الخير الناصح الصالح ابو الحسن علىّ بن سليمان بن عبد الله بن عثمان اعانه الله على ما هو بصدده من الاخذ بايدي المسلمين . وكان ابو علىّ رحل لفاس فاقام بها مدّة واخذ بها عن جماعة كالامام الونشريسيّ مؤلّف المعيار والامام ابن غازي وغيرهما ثمّ رجع لبلده سوس ولمّا خرج من فاس شيّعه شيخه الونشريسيّ وذكر في المنتقى قال حدّثنى ابو راشد انّه لمّا اكمل على ابن غازي قراءته واراد الرجوع الى وطنه فجاء للشيخ ليودّعه فاخذ الشيخ ابن غازي بيده اليمنى وقال له استودع الله دينك وامانتك وخواتم عملك ثمّ قال الشيخ ابن غازي بعد ذلك الان اجزأت فاس اي

ولدت الاناث ومنه على تاويل وجعلوا له من عباده جُزْءاً اي اناثاً . ولاهل سوس اعتناء عظيم بفتاويه رحمه الله وقد افتى باباحة كل ما صيد بالرصاص وخالفه بعض اهل عصره حسبما في نوازل ابي مهديّ الشجتانيّ ومن بعض اجوبته ما نصّه احباس المسجد تزكّى على ملك المحبّس فان حبّس واحد ما فيه النصاب زكّى والّا فلا سواء حبّس على مصالح المسجد اوالعلم لقولهم فالمعتبر الجملة اي جملة ما حبّس واحد لاجملة احباس المسجد وامّا ما اشتري بالغلّات فلا يزكّى فانّها لم تكن ملكاً للمحبّس والمسجد غير مكلّف والمحبّسون اموات غير مكلّفين وبقي النظر فيما اذاكان المحبّس حيّاً . وفوايده رحمه الله كثيرة توفّى سنة اثنتين وثلاثين وتسعماية ومن اشياخ السلطان ابي عبد الله ايضاً الامام العلّامة المحقّق ابو عبد الله محمّد بن احمد اليستتيّ اخذ عنه علوماً منها التفسير قال المنجور وكنت انا قاريه بين يدي امير المؤمنين العالم العابد المقدّس المجاهد ابي عبد الله المذكور وكان شديد المحبّة له قال المنجور ولمّا توفّى الشيخ وذهبت مع ولده صبيحة تلك الليلة التي توفّى فيها لنخبر السلطان بوفاته وجدناه يقرا ورده بجامع المرينيّ فخرج السلطان الينا وهو يبكي بصوت عالٍ يفجع من سمعه حتّى راينا فيه العجب وما سكت الّا بعد مدّة لما كان يعلم منه من صحّة الدين ومتانته والنصح لخاصّة المسلمين وعامّتهم وحضر جنازته توفّى رحمه الله عام تسعة وخمسين وتسعماية وللسلطان رحمه الله عدّة اشياخ وفيما ذكرناه كفاية والله وليّ التوفيق

ذكر الخبر عن بيعة السلطان ابي عبد الله محمّد الشيخ وتمهيده البلاد

قال في شرح درّة السلوك كانت بيعة ابي عبد الله المهديّ بمرّاكش سنة احدى وخمسين وتسعماية فاستولى على البلاد التي كانت بيده وبيد اخيه ابي العبّاس

المخلوع من اقليم تادلا الى وادي نول ثمّ تحرّكت فيه الهمّة السلطانيّة والشهامة الهاشميّة وطمح بصره الى الزيادة في مملكته وسما الى الوغول في مداين المغرب وقُرَاه فتوجّه الى مقاتلة بقايا بنى مرين ونكث ما بينه وبينهم من الصلح المتقدّم فرُموا منه بداهية دهيا ووقعت عليهم منه صاعقة صمّاء وصار يستسلبهم من ملكهم وما بايديهم بما اتاح الله من النصر الى ان استولى على ما بايديهم واوّل ما ملك من مداين المغرب مدينة مكناسة افتتحها سنة خمس وخمسين وتسعماية بعد حصار ومقاتلة قال صاحب الدوحة ولمّا تغلّب على مكناسة والحّ بالمطالبة لاهل فاس جاءه الشيخ ابو الرواين وقال له اشتر منّى مدينة فاس بخمسماية دينار فقال السلطان ما انزل الله بهذا من سلطان هذا شيء لم تات به الشريعة فقال والله لادخلتها هذه السنة فبقى اشهراً والامر لايزيد عليه الّا تعصّباً فقام الامير ابو محمّد عبد القادر وقال لابيه يا ابت افعل ما قال لك الشيخ ابو الرواين فانّه رجل مبارك من اولياء الله تعالى وما زال به كذلك حتّى اذن له في الكلام معه فكلّمه الامير عبد القادر فقال له ادفع المال فدفعه له فقال له عند تمام السنة ان شاء الله يقضى الله الحاجة وامري بامره سبحانه ثمّ انّ الشيخ ابا الرواين فرّق المال من يومه على الضعفاء والمساكين ولم يمسك لنفسه منه حبّة واحدة ومن ذلك اليوم والسلطان المذكور في الظهور الى ان تمّت السنة فدخل فاساً كما قال . قال صاحب ممتع الاسماع والشيخ ابو الرواين هذا كان احد الاسباب في تمكين السلطان المذكور من الملك واخراج بنى مرين منه فانّه لمّا راى مرج الناس وهيجان النصارى دمّرهم الله على بلاد الاسلام جعل ينادى ياحران جيء فانّي اعطيتك الغرب والحران هو احد اولاد السلطان صاحب الترجمة وهو اكبر اولاده حسبما ياتي ذكرهم وهو كان يتقدّم للحروب ولم يفتتح والده من البلاد الّا ما فتح له على يديه ثمّ انّ الشيخ ابا الرواين بعد ان قال ماقال راى بعض الاكابر الاشياخ من اهل وقته وضع يده على بنى مرين قيل هو الشيخ ابو عمرو عبد الواحد الزعريّ وقيل هو الشيخ ابو العبّاس احمد بن الشاهد المصباحيّ احد اولاد مصباح سلالة الاولياء ركب بغلة

وذهب اليه فلمّا بلغ داره وجد ببابها ولداً له فقال له ياعمّ ابا الروابن اعطني هذه البغلة فقال له هي لك فنزل عنها ومكّنه منها فدخل الى والده الشيخ واعلمه بذلك فخرج الشيخ وقال له بعد السلام عليه ما ثمن تلك البغلة فقال له ان ترفع يدك عن هولاء الناس بني مرين فقال له قد رفعتها ومثل هذا تقدّم عن الشيخ ابي محمّد عبد الله الغَزَوانيّ وذكر ايضاً عن ابي الحسن عليّ الصنهاجيّ انّه كان يوماً ينادي بقنطرة الصبّاغين بفاس اخرجوا يا بني مرين والله ماتتركم ببلدنا ابداً وكان دخول السلطان ابي عبد الله محمّد الشيخ المهديّ لمدينة فاس سنة ستّ وخمسين وتسعماية قال ابن القاضي فيشرح درّة السلوك ويوافقه في التاريخ لمّا دخل مدينة فاس من القول بلدة سرك بحساب الجمل . ولمّا تملّك مدينة فاس وحلّ بها والقى في دار ملكها عصا التسيار طمحت به الهمّة العالية الى تلمسان فانصرف اليها بجموع عديدة فملكها ونفى عنها الاتراك وانتشر حكمه في اعمالها ونواحيها الى وادي شلف وكان دخوله لتلمسان يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الاولى عام سبعة بموحّدة وخمسين وتسعمايـة ثمّ رجع الى فاس وقد اتّسعت له مملكة المغرب ودانت له البلاد كلّهـا واشتغل بترتيب ديوان الملك وتحسين شارة السلطنة وضبط امور الخدم والعبيد ويقال انّه لمّا دخل مدينة فاس وعليه وعلى اصحابه المدرعات الصفر وسمة البداوة لايحة عليهم حملوا انفسهم على التـادّب باداب الحضرة والتخلّق باخلاق المدينة وذكر انّ ملك الاشراف انمّا تتّي على يد رجل وامراة الرجل قاسم الزرهونيّ فانّه عمل للسلطان محمّد الشيخ هيئة السلاطين فيملابسهم ودخولهم وخروجهم وجلوسهم واداب اصحابه وكيفيّة منواهم بين يديه والمراة العريفة بنت نجّو فانّهـا عملت سيرة الملك في داره وحالته في الطعام واللباس وعادته مع النساء وغير ذلك فاكتسى ملك الشيخ بذلك طلاوةً وزاد في عيون الناس العامّة حلاوةً بسبب جريانه على العوايد الحضريّة فلم يزل ابو عبد الله يدور على مدن المغرب ويطيل الاقامة بفاس الى ان ورد عليه ابوحسّون من تلمسان واخرجه من فاس والله غالب على امره

ذكر الخبر عن دخول ابي حسّون المرينيّ مدينة فاس

واخراجه ابا عبد الله محمّداً الشيخ منها

كان ابو حسّون المعروف بالبادسيّ ابن الشيخ محمّد بن ابي زكري المرينيّ الوطّاسيّ حين اخرجه ابو عبد الله الشيخ من دار ملكه فاس وتملّكها كما ذكرنا قبل مستوفيً مرّ متوجّهاً الى الجزائر حقناً لدمه وطلب الاغاثة ولم يزل عند ترك الجزائر يفتل لهم في الغارب والسنام ويحسن لهم بلاد المغرب ويعظّمها في اعينهم ويقول لهم انّ ملكها اليوم استلبنى ملكى وملك اباءي وغلبنى تراث اجدادي فلو ذهبتم معى الى قتاله عسى الله ان يتيح بنا النصر عليه ويرزقنا الظفر به والغلبة عليه ولا تعدمون انتم مع ذلك منفعة من ملء ايديكم غنايم وذخاير وواعدهم بمال جزيل فاقبلوا معه في جيش حفيل وباشتهم صالح التركمانيّ الى ان دخلوا مدينة فاس وخرج ابو عبد الله محمّد الشيخ هارباً بعد حروب عظيمة ومعارك شديدة وكان دخول ابي حسّون لفاس ثالث صفر سنة احدى وستّين وتسعماية ولمّا دخل فاساً فرح به اهلها فرحاً شديداً وترجّل هو عن فرسه وصار يعانق الناس كبيراً وصغيراً وشريفاً ومشروفاً وهو يبكى على ما دهمه واهل بيته من فتن الاشراف واستبشر الناس بقدومه وتيمّنوا بطلعته ولم يلبث ابو حسّون الّا يسيراً فكثرت شكاية الناس له بالاتراك وانّهم مدّوا ايديهم للحريم وعتوا في البلاد فبادر بدفع ما اتّفق معهم عليه من المال لهم واخرجهم من فاس وتخلّف منهم نفر يسير ثمّ انّ ابا عبد الله محمّداً الشيخ المهديّ لمّا وصل لمرّاكش بعد الكاينة عليه صرّف همّته لاستنفار القبايل وتعبية الاجناد وابقاء الابطال فاجتمع له من الجيوش ما تقوّى به عضده فتوجّه به الى فاس فخرج ابو حسّون فى رماة فاس وما انضاف اليه من جيش المغرب فكانت

الوقعة على ابي حسّون فتحصّن بفاس وحوصر فيها فلم يزل ابو عبد الله محمّد الشيخ محاصراً له الى ان قتل ابو حسّون وكانت الوقعة بينهما بموضع يقال له مسلّمة ودخل السلطان ابو عبد الله مدينة فاس يوم السبت الرابع والعشرين من شوال سنة احدى وستّين وتسعماية هكذا ذكره بعضهم والذي عند صاحب الدوحة انّ دخول ابي حسّون لفاس كان في المحرّم من سنة ستّين وتسعماية وانّ رجوع السلطان ابي عبد الله ودخوله لفاس كان في ذي القعدة سنة ستّين وتسعماية وابو حسّون المذكور هو علىّ بن محمّد بن ابي زكري الوطّاسىّ وكان بويع بفاس سنة اثنتين وثلاثين وتسعماية ثمّ قبض عليه ولد اخيه احمد بن محمّد وخلعه واشهد عليه بخلعه وبويع احمد بن محمّد يوم خلع محمّد ابي حسّون اخر ذي الحجّة من السنة المذكورة قال ابن القاضى وقد رايت البيعة التى كتبت له بخطّ الامام عبد الواحد الونشريسىّ من انشائه وعليها خطوط جماعة من فقهاء فاس كابي العبّاس الحبّاك والفقيه المواسى وغيرهما . وانظر ما وجه كتب البيعة لاحمد مع انّ خلع ابي حسّون لا موجب له والونشريسىّ من اهل الورع كما ستراه عن قريب ولعلّه لامر لم يظهر لنا ولم يزل السلطان احمد متمادياً على الملك الى ان اسره السلطان ابو عبد الله محمّد الشيخ ودخل فاساً وفرّ ابو حسّون للجزائر وقبض السلطان ابو عبد الله على الوطّاسيّين وبعث بهم مصفدين لمرّاكش ثمّ غدر بهم فيما قيل بعد ان اظهر العفّة عنهم وسرّح السلطان احمد من وثاقه والله غالب على امره وفي دخلة السلطان ابي عبد الله الثانية امر بقتل الفقيه الصالح قاضى الجماعة بفاس ابي محمّد عبد الوهّاب ابن محمّد الزقاق لانّه اتهمه بالميل الى ابي حسّون ويحكى انّه لمّا مثل بين يديه قال له اختر باىّ شىء تموت فقال له الفقيه اختر انت لنفسك فان المرء مقتول بما قتل به فقال لهم السلطان اقطعوا راسه بشاقور فكان من قدر الله سبحانه انّ السلطان قتل به ايضاً كما سياتي بعد ذلك من صدق فراسة الفقيه ابي محمّد وكان ابو محمّد هذا فقيهاً مشاركاً ووقعت بينه وبين معاصره الامام الونشريسىّ منازعة

في مسئلة خلف الوعيد من الله فزعم ابو محمّد انّه يصحّ من الله خلف الوعيد وخالفه اليستنّى والّف كلّ منهما فى المسئلة والصواب مع اليستنّى وكان قتل ابي محمّد فى ذي القعدة من عام احد وستّين وتسعماية وفى هذه الدخلة ايضاً امر بقتل خطيب مكناسة الزيتون صانها الله الشيخ الفقيه ابي الحسن علىّ حرزوز المكناسىّ لكلام بلغه عنه وانّه كان يذكره فى خطبته يحذّر الناس من اتباعه والانقياد له ويقول فى خطبته جاءكم من سوس الاقصى البعاد واذا تولّى سعى فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحبّ الفساد واذا قيل له اتّق الله اخذته العزّة بالاثم فحسبه جهنّم ولبئس المهاد وكلام اخر لم اتحقّق لفظه فقتله رحمه الله فى ذي القعدة من السنة المذكورة وذكر فى الدوحة انّ سيّدي ابا الرواين بعث الى ابي الحسن حرزوز وهو يقول له اشتر نفسك منّى فلم يكترث بكلامه فقال ابو الروابن للرسول ارجع اليه وقل له انّه سيقتل ذبيحاً هو وولده ويعلّقان على باب دارهما فى القرب فبلغ ذلك الفقيه ابا الحسن حرزوز فذهب مسرعاً حتّى اتي الشيخ ابا الرواين فقال له يا سيّدي ما هذا الذي تقول فقال هفوة صدرت ومشيئة سبقت فقال له يا سيّدى نفعل كلّ ما تقول فقال له ما يكون الّا ما كان ثمّ تراخى الامر مدّة من ثلاثة اشهر فكان الامر كما قال . ويحكى شائعاً انّ ولد ابي الحسن حرزوز كان يوماً جالساً بباب داره وكان فى الطريق طين فمرّ ابو الرواين وعليه ثياب رفيعة كانّه ذاهب لصلاة الجمعة فقال ولد ابي الحسن ان كنت تحبّ الله فتمرّغ فى هذا الطين لما قدّم له الله قال فجعل الشيخ يتمرّغ فى الطين ثمّ قام فقال له اقنعت قال نعم فقال له هكذا تمرّغ انت وابوك فى الحديد وكان كما قال . وقد قتل السلطان ابو عبد الله محمّد الشيخ المهدىّ ايضاً قبل دخلته الاولى لفاس الفقيه الامام المفتى الخطيب ابا محمّد عبد الواحد ابن العلّامة الامام ابي العبّاس احمد الونشريسىّ وذلك انّه لمّا الحّ بالمطالبة لاخذ فاس وصعب عليه امرها قيل له لا سبيل لك اليها ولا يبايعك اهلها الّا اذا بايعك ابن الونشريسىّ فبعث اليه ورغبه فقال له

بيعة هذا السلطان يعني ابا العبّاس احمد بن محمّد الوطّاسيّ فى رقبتي ولا يحلّ لي حلّ ربقتها الّا بموجب شرعيّ وهو غير موجود فلمّا امتنع ابن الونشريسيّ من الاجابة امر السلطان محمّد الشيخ جماعة من المتلصّصين ان ياتوا به من فاس ويخرجوه بظاهرها فاتوه وراودوه ان يذهب معهم فلمّا امتنع من الذهاب معهم قتلوه وذكر انّ السلطان ابا عبد الله محمّد الشيخ كتب لاهل فاس وهو يقول لهم ان دخلت فاساً صلحاً ملاتها عدلاً وان دخلتها عنوةً ملاتها قتلاً فاجابه ابن الونشريسيّ بابيات اغلظ له فيها واوّلها

كذبت وبيت الله لا تحسن العدلا ولاخصّك المولى بفضل ولا اولى
وما انت الّا مسرف ومعاند تمثّل للجهّال بالسمة المثلى

فحقّق ذلك عليه السلطان وامر بقتله وحكى انه كان يقرا صحيح البخاريّ بين العشاءين بجامع القرويّين وينقل عنه كلام ابن حجر فتح الباري عليه ويستوفيه لانّه شرط المجلس فقال له ابنه يا ابت انيّ سمعت انّ اللصوص ارادوا الفتك بك الليلة فى مجلسك فلو تاخّرت عن القراءة الليلة فقال له اين وقفنا من القراءة فى البخاريّ فقال له ولده على كتاب القدر فقال له كيف نفرّ من القدر اذا انطلق بنا الى الميعاد فلمّا افترق المجلس خرج الشيخ من باب الشمّاعين احد ابواب المسجد المذكور فضرب احدهم يده فقطعها ثمّ جهزوا عليه رحمه الله هنالك بالباب المذكور فى ذي الحجّة سنة خمس وخمسين وتسعماية قال المنجور فى فهرسته واشتهر عن الفقيه الصالح ابي عبد الله محمّد بن ابراهيم المدعوّ بابي شامة انّه راى هذا الشيخ فى المنام بعد مقتله فساله عن حاله وما فعل الله به فانشا يقول

لقد عمّني رضوان ربّي وفضله ولم ار الّا الخير فى وحشة القبر

وانّي لاسـال الالاه بفضـله ليحفظني يوم الخروج الى الحشر
وما بعد ذاك من امور عريضة كنشر الكتاب والجواز على الجسر
بجـاه الـنبيّ الـهـاشميّ محمّد واله والاصحاب ذي الشرف الغر

وكان ابو محمّد عبد الواحد الونشريسيّ رحمه الله امام وقته غير مدافع صحيح الدين متين الورع مهيباً ذا سمة حسن وحال مستحسن فصيح العبارة متقدّماً على اهل عصره في صناعة الانشاء وعقد الشروط والوثايق ولمّـا زوّجه والده الامام الكبير مؤلّف المعيار وهو شابّ واعرس اطلق الفقيه القـاضي المفتي ابو عبد الله محمّد ابن عبد الله الـيفرنيّ المكنـاسيّ مؤلّف المجـالس المكناسيّة يده على الشهادة وقال لابيه هذه هديّتي لهذا العرس يعني الشهادة وكانت خطّة الشهادة عند هذا القاضي عزيزة ومزيّة كبيرة حتّى كان يقول من خطبها منّي فكانّما خطب لي ابتي واصاب في ذلك لانّ بعض القضاة كان يقول للشهود اتم القضاة ونحن المنفّذون فخرج ابو محمّد عبد الواحد من الاعراس الى الشهادة بالسماط ثمّ امتدّ به الحال الى ان ولي القضاء بفاس مدّة من ثمان عشرة سنة ثمّ تخلّى عنه الى الفتوى بعد موت الشيخ ابن هارون وكان شاعراً مجيداً له ازجال وموشّحات مع رقّة طبع واهتزاز عند سماع الالحـان والة الطرب لاعتدال مزاجه وقوام طبعه قال المنجور من رقّته وذكايه انّه كان يدرّس يوماً فرعى ابن الحاجب بالمسجد المعلّق برحبة الزبيب فاجتـازت من هنالك عماريّة مصحوبة بطرب من زمّارات وطبـال وبوقات فاخرج الشيخ راسه من الطاق فاصغى الى ذلك ثمّ قال ما تاتّى هذا لاصحـاب العماريّة حتّى انفقوا فيه مالاً معتبراً ونحن نسمعه مجّاناً كيف لا نفعل ولمّـا توفّي ابوه قيل انّه لايحسن درس ابيه فجلس على كرسيّ ابيه بالمدرسة المصباحيّة لتدريس المدوّنة وحشر الناس يختبرون وحضر الامام ابن غازي فاجاد كمـا ينبغي فاعجب ابن غازي وقبّله بين عينيه وقال لو لم تحسن الدرس لقمت مقـامك حتّى تحسنه

وتاخذ مرتب ابيك لما كان بين ابن غازي وبين والده من الصداقة وكان يحضر مجلسه اعيان الطلبة كالشيخ ابي محمّد المساريّ صاحب حاشية المكوديّ والزقّاق وغيرهما ونظم ايضاً ايضاح المناسك لابيه وزاد عليه وشرّحه ومن شعره قوله في تاريخ قنطرة الرصيف

جسر الرصيف ابو العبّاس جدّده ... فخر السلاطين من ابناء وطّاس
فجاء في غاية الاتقان مرتفعا ... لمن يمرّ به من عدوتي فاس
وكان تاريخه في نصف عام غنى ... من هجرة المصطفى المبعوث للناس

وكان الوطّاسيّ السلطان المذكور واقفاً عند اشارة ابي محمّد الونشريسيّ لايتعدّى رايه ولا يخالف امره كما وقع له معه في رجل اسلاميّ يعرف بعبد الرحمن المنجور وكان تاجراً جمّاعاً للمال شهد عليه في حكاية طويلة اربعون رجلاً من العدول المبرّزين باستغراق ذمّته فاخذه السلطان وقتله وصيّر ساير املاكه لبيت مال المسلمين فرغب اولاد المنجور من السلطان ان يودوا عشرين الف دينار ويسقط عنهم بقيّة الاستغراق ويردّ اليهم املاكهم فقال السلطان لحاجبه اذهب الى الشيخ عبد الواحد الونشريسيّ وشاوره في ذلك وقل له انّي في الحاجة الى هذا المال لاجل هذه الحركة فذهب الحاجب واخبره بمقالة السلطان ورغبه في قبول ذلك فقال له الشيخ والله لا القى الله بشهادة اربعين رجلاً من عدول المسلمين لاجل سلطنتك اذهب اليه وقل له انّي لا اوافق على ذلك ولا ارضاه فرجع الحاجب للسلطان واخبره بما قال الشيخ فرجع السلطان عمّا عزم عليه وانظر هذا مع ما جرى معه ايضاً وذلك انّ الناس خرجوا يوم العيد للصلاة فانتظروا السلطان فبطئ عليهم ولم يات الى ان خرج وقت الصلاة وحينئذ اقبل السلطان في ابهته فلمّا وصل للمصلّى نظر الونشريسيّ للوقت فراه قد فات فرقى المنبر وقال يا معشر المسلمين عظّم الله اجركم في صلاة العيد فقد عادت ظهراً ثمّ امر المؤذّن فاذّن واقام

الصلاة وصلّى بالناس صلاة الظهر فخجل السلطان واعترف بخطيئته رحمهم الله واخبار ابي محمّد الونشريسّي رحمه الله كثيرة وفي هـذا القـدر الذي ذكرناه كفـاية والله اعلم

ذكر الخبر عن ضخامة دولة السلطان ابى عبد الله محمّد الشيخ المهديّ واتّساع ايالته

لمّا فتح ابوعبد الله محمّد الشيخ المهديّ مدينة فاس واستولى عليها اتّسعت له مملكة المغرب من باب تلمسان الى تخوم الصحراء ودانت له الرقاب واجتمعت عليه الكلمة وكان قد استولى على تلمسان واعمالها الى وادي شلف وكان دخـوله لتلمسان يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الاولى سنة سبع بموحّدة وخمسين وتسعماية كما تقدّم بعد ان اقام محاصراً لها تسعة اشهر ومات في محاصرته ايّاها ولده مولاي محمّد الحرّان ثمّ تراجعت عليه التركَ واخرجوه من تلمسان فانصرف عنها الى المغرب الى ان عاود المجيء اليها عام سبع وستّين لمّا بلغه قيام اهلها على التركَ وانحـصار التركَ منهم بقصبتها فاقام مرابطاً عليها ايّاماً ثمّ رجع ولم يدخلها عليهم قال ابن القاضي كان رحمه الله ماضي العزيمة قويّ الشكيمة عظيم الهيبة كثير الحركة ذا همّة عالية وشهامة غالية حتّى اقعد قواعد الملك واسّس مبانيه واحيـا مراسم الخلافة الدارسة ومعالمها الطامسة وكان ذا سعد وبخت عظيم الرغـبة في الجهاد داير بيضاءه في اسلام فتح حصن النصارى بسوس بعد ان اقام النصـارى فيه اثنتين وسبعين سنة وكان منصوراً بالرعب حتّى تركوا اسفى وازمّور من غير قتال ولا ايجاف عليهم واصيلا . وتقدّم في كلامنا مايخالف هذا في ترجمة ابي العباس احمد الاعرج وكان نزول النصارى بازمّور سنة اربـع عشرة وتسعماية وفي هذه السنة بنى النصارى حجر بادس وفي اواخر المحرّم منها اخذ النصارى مدينة وهران

ونكب اهلها فما منهم الّا اسيراً وقتيلاً الى ان اعادها الله للاسلام على يد الاتراك في حدود العشرين ومائة والف والامر لله وحده

ذكر الخبر عن اولاد السلطان ابي عبد الله محمّد الشيخ

وتسميتهم وتسمية حجّابه وقضاته

كان رحمه الله له عدّة اولاد نجباء انجبهم مولاي محمّد الحرّان وبه عرف وهو اكبرهم وهو الذي يتقدّم للحروب ولم يفتح لابيه من البلاد الّا ما فتح على يديه وهو الذي كان ينادي سيّدي ابو الروايين ويقول قبل ان يكون للاشراف ذكر ياحرّان جيء فانّي قد اعطيتك الغرب فلم يفقه الناس قوله الى ان ظهر مولاي محمّد المعروف بالحرّان هذا ومنهم الوزير ابو محمّد عبد القادر توفّي سنة تسع بمئناة وخمسين وتسعماية وابو محمّد عبد الله الغالب بالله وابو مروان عبد الملك الغازي في سبيل الله وابو العبّاس احمد المنصور وابو سعيد عثمان وابو السعادة عبد المومن وابو حفص عمر وغيرهم قال المنجور في فهرسته حضرت يوماً بمجلس مولانا امير المؤمنين ابي عبد الله محمّد الشيخ المهديّ وقد حضر عنده اولاده الصناديد الامراء مولانا محمّد الحرّان ومولانا عبد القادر ومولانا عبد الله فدخل شيخنا الامام العالم ابو عبد الله اليستنّي فلمّا نظر الى بنيه حوالى ابيهم انشد بيتاً من تلخيص المفتاح

فقلت عسى ان تبصريني كانّما ... بنيّ حوالي كالاسود الجاذر

فاعجب ذلك السلطان واولاده رحمهم الله واما حجّابه فعلي بن ابي بكر ازيكي الحاحي وموسى بن ابي جمادة الغمري وغيرهما واما قضاته فبفاس ابو حسّون

علي بن احمد الاخصاصيّ وبمرّاكش ابو علي الحسن بن ابي بكر السجتانيّ

ذكر الخبر عن سيرته ولمع من سياسته

رحمه الله

فكان رحمه الله مولعاً بتدبير امر الرعيّة مستيقظاً في مسائله حازماً في اموره غير متوقّف في الدماء وهو اوّل من استخرج الضريبة المسمّاة على لسان العامّة بالنايبة وفرض على الناس المغارم والمطالب وكان لا ينزه عنها احداً حسبما ذكره ابن عسكر في الدوحة اظنّه في ترجمة سيّدي خالد المصموديّ وانّه رماها حتّى على اولاد سيّدي خالد المذكور مع ما لابيهم من الشهرة بالولاية والصيت المديد في تلك البلاد وحسبك انّ كرامة سيّدي خالد الباقية الى الان انّه كتب في حجر باصبعه لا اله الّا الله فاثر في الحجر وانتقش فيه كانّما تقش في شمع وما نزه السلطان عنها اولاده حتّى ظهرت له مع ابيهم كرامة ذكرها في الدوحة فراجعها وقد رايت رسالة كتب بها السلطان ابو المعالي زيدان بن منصور للشيخ ابي زكرياء يحي بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحيّ فكان من فصولها ما صورته ونحن نلخّص لكم الكلام امّا بعد ما اورده الناس في الخراج امّا ما بنوا عليه فرضه في اوّل الاسلام والدول العظام فلا نطيل به وامّا في المغرب خصوصاً فاوّل من فرضه عبد المؤمن بن علي وجعله على اقطاع الارض بناءً على انّ المغرب فتح عنوةً واليه ذهب بعض العلماء ومنهم من يقول انّ السهل فتح عنوةً والجبال صلحاً فاذا تقرّر هذا وعلمت انّ اهل ذلك العصر قد بادوا واندثروا فبقي السهل كلّه ارثاً لبيت المال تعيّن ان يكون الخراج فيه على ما يرضى صاحب الارض وهو

السلطان والجبل تتعذّر معرفة ما كان الصلح عليه ولا سبيل الى الوقوف عليه فيرجع فيه الى الاجتهاد وقد اجتهد سلفنا الكرام في فرضه لاوّل الدولة الشريفة على حسب وفق ايمّة السنّة ومشايخ اهل العلم والدين في ذلك العهد فجري الامر على السند القويم الى ان هبّت عواصف الفتنة لايّام ابن عمّنا صاحب الجبل وادالة مولانا الامام وصنوه المرحوم على حواضر المغرب وسهله عند الزحف بالاتراك وامتدّت به الفتنة بالجبل الى ان هلك مع النصارى في الغزوة الشهيرة وجاء الله بمولانا الامام المقدس بالجبل العاصم للاسلام من طوفان الاهوال قدر رضى الله عنه الاشياء حقّ قدرها ورأى المغرب غبّ تلك الفتن قد فغر افواهه لالتقامه عدوّان عظيمان من الترك وعدوّ الدين الطاغية فاضطرّ رحمه الله الى الاستكثار من الاجناد لمقاومة الاعداء والذبّ عن الدين وحماية ثغور المسلمين فدعى تضاعف الاجناد الى تضاعف العطاء وتضاعف العطاء الى تضاعف الخراج وتضاعف الخراج الى الاجحاف بالرعيّة والاجحاف بالرعيّة امر يستنكف رضى الله عنه من ارتكابه ولا يرضاه في سيرة عدله طول ايّامه فلم يبق له حينئذ الّا امعان النظر في اصل الخراج فوجد بين السعر الذي بنى عليه في قيمة الزرع والسمن والكبش الذي تعطى فيه الرعيّة من زمن الفرض وبين سعر الوقت اضعافاً فحينئذ تحرّى رحمه الله العدل فخيّر الرعيّة بين دفع كلّ شيء بوجهه او دفع ما يساوي سعر الوقت فاختاروا السعر مخافة ان يطلع الى ما هو اكثر فاسعفهم اليه رضى الله عنه وعرف الناس الحقّ فلم ينكره احد من اهل الدين ولا من اهل السياسة ليت شعري لوطلبنا نحن الرعيّة اليوم بسعر الوقت الذي طلع الى اضعاف مضاعفة اليوم ماذا تقولون وقد انتقدتم علينا ما هو اخفّ من ذلك والحاصل راجعوا رضى الله عنكم ما عند الامام الماوردي في الاحكام السلطانيّة في ضرب الخراج فقد استوفى الكلام في ذلك انتهى نصّ المحتاج اليه من الرسالة وكانت هذه النايبة في زمن السلطان ابي عبد الله تفرّض على الكوانين وتوظّف على حساب السكّان ويفرض الشيء الخفيف في ذلك

وجرى على ذلك ولده الغالب واخوه بعده السلطان المعتصم ثمّ اشتدّ امرها في ايّام المنصور وتفاقم الحال بعده وقد وقفت على رسالة كتبها السلطان ابو مروان عبد الملك الغازي المعتصم لاخيه المنصور يامره بفرض مؤنة محلّته على بعض القبايل ومنها تعلم خفّة الامر في زمانه ونصّها من عبد الله المعتصم بالله المجاهد في سبيل الله امير المؤمنين ابي مروان عبد الملك ابن امير المؤمنين ابي عبد الله محمّد الشيخ الشريف الحسنيّ ايّد الله تعالى امره واعزّ نصره الى اخينا الاعزّ الانجب باب احمد ابن مولانا الوالد حرّس الله تعالى كريم اخايه سلام كريم ورحمة الله تعالى وبركاته امّا بعد فانّا كتبناه اليكم من محلّتنا السعيدة بتامسنا ولا زايد بحمد الله الّا الخير والعافية والنعم الصافية هذا وانّه ساعة وصوله اليكم تخرجوا من الخدّام لعمالة مكناسة وازمّور واولاد جلّول من يفرض عليهم علف محلّتنا المنصورة ومؤنتها وتامرهم بدفعه وابلاغه لمدينة سلا وقدر ذلك صحفة شعير وعشرون مدّا قمحاً لكلّ نايبة وصاع من سمن وكبش لاربع نوايب واكّد عليهم رعاك الله ان يعتنوا بذلك وبايصاله للمكان المذكور من غير عطلة وهذا ما وجب به الاعلام اليكم والله يرعاكم بمنّه والسلام . ومن هذا المعنى ما يحكى انّ ابا عبد الله القايم لمّا بويع له بصقع سوس وراى ضعفه وقلّة ما بيده مع انّ الملك لا يتاتّى الّا مع المال امر اهل السوس ببيضة لكلّ كانون اجتمع من ذلك الاف لاتحصى لانّ الناس استهانوا امر البيضة فلمّا اجتمع عنده البيض امرهم ان ياتي كلّ من اتى ببيضة بدرهم ففعلوا فاجتمع عنده مال وافر فاصلح به شانه وقوّى به جيشه وهذه اوّل نايبة فرضت في دولة الاشراف والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

ذكر الخبر عن مآثر السلطان ابي عبد الله محمّد الشيخ المهديّ وما وقع في ايّام دولته من الاحداث

قال في المنتقى كانت له رحمه الله مآثر حسنة منها بناء جسر نهر سبو ووادي امّ الربيع ، وسياتي في كلامنا في ترجمة المنصور ما يخالف هذا ومنها انّه اوّل من اختطّ مرسى اكدير بالسوس الاقصى سنة سبع بموحّدة واربعين وتسعماية لمّا اجلى النصارى دمّرهم الله من الموضع المعروف بفنت على مقربة من اكدير المذكور وكان في اختطاطه رايٌ مصيب وفراسة تامّة وفي سنة ثلاث وثلاثين وتسعماية وقع مطر غزير بمرّاكش حتّى امتلات البيار وتهدّمت الديار وصار الناس يؤرّخون بعام الابيار وفي سنة ثمان وخمسين وتسعماية كانت حركة مالوا وفي سنة ثمان وخمسين امر بامتحان ارباب الزاويا المتصدّرين للمشيخة خوفاً على الملك لانّه دخله من بابهم فامتحن جماعة كسيّدي عبد الله الكوش فاخلى زاويته بمرّاكش وامر برحيله لفاس وفي الدوحة في ترجمة ابي عليّ الحسن بن عيسى المصباحيّ قال لمّا امتحن السلطان ابو عبد الله محمّد الشيخ زاويا المغرب قيل لابي عليّ الا تخشى من هذا السلطان فقال انّما الخشية من الله تعالى ومع هذا فالملك والقبلة لا يقدر احد على نزعهما والباقي امر متروك لمن طلبه وكان السلطان يطالب ارباب الزاويا بودايع بني مرين ويتهمهم بذلك وبعث خديمه يوماً لابي عثمان سعيد بن ابي بكر دفين مكناسة يطالبه بذلك فوجده جالساً بناحية من زاويته يضفر الدوم واذا بطاير لعلّه اللقلاق سانح امامه فما رفع ابو عثمان بصره حتّى سقط الطير ميّتاً متطاير الريش فلمّا راى ذلك خديم السلطان فزع وولّى لسيّده هارباً وفي سنة تسع بمئاة وخمسين قدم عليه بمرّاكش العالم العلّامة الصالح ابو عبد الله محمّد بن عليّ الخروبيّ الطرابلسيّ

نزيل الجزائر سفيراً بينه وبين سلطان الترك ابي الربيع سليمان شاه صاحب القسطنطنيّة العظمى بقصد المهادنة بين السلطانين وتحديد البلاد بينهما وفي قدمة الخروبيّ هذه لمرّاكش انكر على سيّدي ابي عمرو القسطلّي قصّه لشعر الشارب وقال انّه بدعة فقالوا له انّ الشيخ الجزّوليّ كان يفعله فقال لهم لعلّه باذن والاذن لا يعمّكم فانّ الاذن للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم يعمّ اتباعه والاذن للوليّ لا يعمّ اتباعه وانكر عليه مسايل كثيرة وبعث له رسالة ابدع له فيها وهى شهيرة توفّى الخرّوبيّ رحمه الله سنة ثلاث وستّين وتسعماية بالجزاير ودفن خارجها والله سبحانه اعلم

ذكر الخبر عن وفاة السلطان ابى عبد الله محمّد الشيخ المهديّ وسببها وكيفيّتها

لمّا تغلّب رحمه الله على بلاد المغرب ودانت له حواضره وبواديه تافت همّته العليّة الى بلاد المشرق فكان يقول لا بدّ لي ان اذهب الى مصر واخرج منها الاتراك من احجارهم وانازلهم من ديارهم فتخوّف منه السلطان سليمان العثمانيّ وكان ابو عبد الله لا يسمّى سلطان العثمانة الّا سلطان الحواتة لانّ الغالب على هاولاء الاتراك السفر في السفاين فانتهى ذلك للسلطان خان العثمانيّ فبعث له ارساله فلم يحتفل بهم ابو عبد الله بل قال لهم اخبروا صاحبكم انّي مفتح عليه بلاده ومتوجّه للقايه فلمّا رجعت الارسال للعثمانيّ واخبروه بمقالة ابي عبد الله وما واجههم به بعث لترك الجزائر ان يانوه براس ابي عبد الله فبعثوا رجلاً من ابطالهم يقال له صالح الكاهية فى شرذمة قليلة من اجنادهم مظهرين له انّهم هربوا من العثمانيّ ورغبوا في خدمته والتحصن به من طلبهم ونيّتهم المكيدة والاغتيال حيث امكنهم الحال فلمّا قدموا على السلطان ابي عبد

الله فرح بهم غاية واظهر السرور بقدومهم عليه وكان ابو عبد الله لمّا دخل مدينة فاس في المرّة الثانية وجد جماعة من الاتراك تخلّفوا عن الجيش الذي قدم به ابو حسّون المريني الوطّاسي من الجزائر كما تقدّم ضمّهم اليه وجعلهم على حدة في جيشه وسمّاهم الانكشارية وقدم الى مرّاكش وكان ابو عبد الله لمّا يركب يقربهم ويدنيهم منه ويامن فيهم وما علم انّ الترك كما قال الشاعر

لا تامنن تركياً فيما يقول ولو ... من العبادة حتّى طار في السحب
ان لك جاد فذاك الجود من غلط ... وان تمرّد عن امّ له وأب

ولمّا قدم صالح الكاهية فرحوا به وجنحوا له اذ كلّ غريب للغريب نسيب انّ الغريب يعجب الغريب فلم يزل مع اصحابه ينظرون في المكيدة ويتربّصون الدوائر بالسلطان ابي عبد الله الى ان امكنتهم الفرصة منه وهو بحركته بجبال درن بموضع يقال له اكلاكل فدخلوا عليه خباءه على حين غفلة من العسس فضربوه بشاقور ضربة واحدة ابانوا بها راسه عن جسده واحتملوه في مخلاة وذهبوا به يخوضون في احشاء الظلماء واستمطوا مطيّة الخوف والغنى وخرجوا عامدين الى جهة سجلماسة كانّهم ارسال الى تلمسان لئلّا يفطن بهم احد فادركوا في بعض المواضع فقتلت منهم طائفة حتّى هلكوا وهرب بعضهم بالراس الى ان بلّغوه للسلطان بالقسطنطنيّة فلم يزل معلقاً بها الى ان تلاشا وقتل معه في تلك الليلة الفقيه ابو الحسن علىّ بن ابي بكر السجتاني والكاتب ابو عمران الوجاني وحكى صاحب ممتّع الاسماع انّ سيّدي احمد الشريف نزيل بنى سلمان من جبل لمطة وكان صاحب حال وله قدم راسخ في الطريق وقعت له وحشة في باطنه بينه وبين سلطان الوقت يعنى ابا عبد الله ادّى ذلك الى ان صرّف همّته الى اهلاكه فدخل عليه في الغيب ليوقع به بشاقور في يده او ورد عليه بذلك واراد ازعاجه فاذا بسيّدي سعيد بن ابي بكر دفين مكناسة قايم على راس

السلطان المذكور ويده على راسه كالحافظ له فقال له كالمنكر عليه الى هنا اذهب فما لك الى ذلك من سبيل فرجع قال في الممتّع وهكذا اتّفق فى الخارج فان الترك قطعوا راس السلطان بشاقور الّا انّ الوقت كان متاخّراً وحال سيّدي احمد المذكور حال صحيح انظر تمام كلامه وكان قتل السلطان ابي عبد الله رحمه الله تعالى يوم الاربعاء التاسع والعشرين من ذي الحجّة عام اربعة وستّين وتسعماية وحمل الى مرّاكش بغير راس فدفن قبلة جامع المنصور في قبور الاشراف هنالك وقبره شهير وممّا نقش على رخامة قبره

حتّى ضريحاً تغمّدته رحمات ... وظلّلت لحده منها غمامات
واستنشقت نفحة التقديس منه فقد ... هبّت من الخلد لي منها نسيمات
لموته كدّرت شمس الهدى فكست ... من اجله السبعة الارضين ظلمات
يا مهجة غالها غول الردى فقضى ... واثبتت سهمها فيها المنيّات
دكّت لموتك اطواد العلا ضغنا ... وارتجّ من نعيك السبع السماوات
وشيّعت نعشك المزجى الى عدن ... من الملائك الحان واصوات
كان الثريا صعاداً تعتليه وقد ... اصبحتَ تحت الثرى تعلوك درّات
يا رحمة الله عاطيه سلاف رضى ... تدور منها عليه الدهر كاسات
قضى فوافق في التاريخ منه جلى ... دار امام الهدى المهديّ جنّات

وتقدّم ذكر من قتل معه وقتل اخيه ابي العبّاس الاعرج في السجن بعده بثلاثة ايّام رحم الله الجميع بمنّه وكرمه

ذكر الخبر عن دولة السلطان ابي محمّد مولانا عبد الله

ابن السلطان ابي عبد الله مولانا محمّد الشيخ الشريف

صفته كان رحمه الله تعالى ادعج العينين مستدير الوجه متّسعة اسيل الخدّين متشرّف الوجه ربعة للقصر وكانت ولادته بتارودانت بعد العشرين من التسعماية ويلقّب من الالقاب السلطانيّة بالغالب بالله تعالى نقّبه بذلك غير واحد من الايمّة ونشا في عفاف وصيانة وضبط احواله وحفظ القرءان العظيم واخذ بطرف صالح من العلم وكان وليّ عهد ابيه ولمّا وافته الانباء بمقتل ابيه بايعه اهل فاس ولم تتخلّف عن بيعته منهم احد وذكر شارح زهرة الشماريخ انّ الفقيه الميقاتي المعدّل بمنار القرويّين ابا عبد الله المزوار كان بصيراً بعلم الازياج والحدثان بينما هو ليلة يراقب الطالع والغارب وقد ابهرّ الليل واسودّ ديجوره راى نجم السلطان ابي عبد الله محمّد الشيخ قد سقط وكانت بينه وبين مولانا عبد الله معرفة وخلطة فاسرع في الذهاب اليه ليخبره بما راى فلمّا بلغ باب فاس الجديد وجده مغلقاً فاستاذن الموكّلين به في افتتاحه فامتنعوا فقال لهم انّي جئت للخليفة في امرمهمّ عنده وان لم تعلموه بمكاني الساعة لحقكم منه غداً ما تكرهونه فانذروا الخليفة به فحمل اليه وساله فاخبره منها بما راى ونعى اليه اباه فلم يكذّب في ذلك واستعدّ وتهيّأ فلم تمض الّا ايّاماً قلايل فوافقته الاخبار بمقتل ابيه في تلك الساعة التى قال له فيها الفقيه المعدّل فوجدته على اهبة واستعداد ولمّا بلغ اهل مرّاكش مبايعة اهل فاس اياه وافقوا عليها فاستوثق له الامر وتمهّد له ملك ابيه وكان ذلك كلّه في المحرّم من سنة خمس وستّين وتسعماية

ذكر الخبر عن سيرته وثناء الناس عليه

وما قيل في ذلك كلّه

كان السلطان ابو محمّد عبد الله الغالب بالله ذا سياسة وخبرة بالملك ولّين عريكة ولمّا استبدّ بالخلافة الان الجانب وخفض الجناح وسار سيرة حسنة حتّى صلحت الرعيّة وازدانت الدنيا وانتعش الناس حتّى كان يقال ثلاث عينات هم عيون الزمان مولاي عبد الله وسيّدي عبد الله بن حسين الشريف وسيّدي عياد السوسيّ ورايت من جملة سؤال كتب به الفقيه الصالح خطيب الجامع الاعظم بتارودانت ابو زيد عبد الرحمن التلمسانيّ الى قاضى الجماعة الفقيه ابي مهديّ سيّدى عيسى بن عبد الرحمن السجتانيّ وهو يقول ولاشكّ انّ مولانا عبد الله مجمع على عدالته وبيعته وقد اخبرني الثقة من اصحاب الشيخ الجامع القطب الكبير ابي العبّاس سيّدي احمد بن موسى السملاليّ عنه انّه قال مولانا عبد الله ياقوتة الاشراف هو صالح لا سلطان وقد قال لي الفقيه سيّدي عبد الرحمن بن عمر البوعقيليّ سال فلان سيّدي احمد ابن موسى عن القطب فقال له انا فقال له ومن بعدك قال فلان قال ومن بعده فقال له مولاي عبد الله فقال له ومن بعده فقال له كفاك ولم يجبه وناهيك شهادة الشيخ له بما ذكر وقد اشتهر عند الناس من الخاصّ والعامّ انّ مولانا عبد الله كان سلطاناً عدلاً ورجلاً صالحاً واستفاض ذلك ثمّ رايت في الرسالة التى كتب ابن اخيه السلطان ابو المعالي زيدان بن احمد المنصور لابي زكرياء يحيي بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحيّ مايخالف ذلك ويوذن انّه كغيره من الملوك وذلك انّ ابا المعالى انكر على ابي زكرياء تعرّضه لامور السلطنة وانكاره على الملوك ودخوله في ذلك وانّ ذلك فضول منه لانّ الصحابة رضى الله عنهم كانوا في زمن اليزيد بن معاوية وماتصدّى احد منهم لعزله وما قام به

ولا شغل نفسه بذلك لانّ السلطان لاينعزل بالفسق والجور الى ان قال له مانصّه واعلم ايضاً انّ والدك افضل منك بدليل اباؤكم افضل من ابنائكم الى يوم القيامة وكان عمّنا مولانا عبد الملك رضى الله عنه سمح له على ماكان عليه واشتهر عياناً وكان والدك في زمنه ودولته وبيعته ووفد عليه ولم يستنكف من ذلك ولاظهر منه ما يخالف السلطنة ولا انكر عليه ولاعرض بما يسوء ملوك الوقت ولا سمع ذلك منه فان كان راضياً بفعله فهو مثله وان لم يرضه فما وجه سكوته والوفادة عليه وقد تحقّقت وعلمت انّ ولاية احمد بن موسى كادت تكون قطعية وقد اشتهر امره عند الخاصّ والعامّ حتّى اطبق اهل المغرب على ولايته وقد كان على عهد مولانا عبد الله برّد الله ضريحه وكان الوليّ المذكور على ماكان عليه واشتهر عنه وما برح الشيخ المذكور يدعو له بالبقاء ولدولته بالدوام ويظهر حبّه وكان المولى المذكور يعزل ويولّي ويقتل وكان شرد منه لزاويته المرابط الاندلسيّ وولد ازيك وامثالهما وكان يقدم للشفاعة ويشفع ولايتعقّب ولايعتب ولايبحث عمّا وراء ذلك باق على عهده ومودّته وكان المولى المذكور بعث لابن حسين بسدّ داره فسدّها وما فتحها حتّى امره ولا استعظم احد ذلك ولا اكثر فيه ولاجعله سبّة لفتح باب الفتنة وكان قوّاد المولى المذكور مثل وزيره ابن شقرة وعبد الكريم بن الشيخ وعبد الكريم بن موسى العلج والهبطيّ والزرهونيّ وعبد الصادق بن ملوك وغيرهم ممّن لايحضرني ذكرهم لبعد عصرهم قد انغمسوا في شرب الخمر واتّخاذ القيان وبسط الحرير وغير ذلك من الات الذهب والفضّة وكان في عصره احمد بن موسى المذكور وابن حسين والشرقيّ وابوعمرو القسطليّ ومحمّد بن ابراهيم التمارتي والشطيبيّ وغير هولاء من المشايخ واهل الدين الذين لايسع من يدّعى هذه الطريقة التقدّم عليهم ولا اكتساب الفضيلة دونهم فاحسنوا السيرة ولا تعرّضوا للسلطنة ولاسمع منهم مايقدح في ولاة الامر وقادة الاجناد ممّن ذكر الذين كان الملك يدور عليهم ويرجع في تدبيره اليهم ومثل من ذكر من الاولياء كان علّامة الزمان وواحد وقته شيخ مشايخ افريقية وبعض اهل المغرب عبد العزيز القسنطينيّ

الشيخ المتكلم في الصوفيّة صاحب الايات البيّنات قد كان من سكّان تونس وكان ملوك تونس وما انضاف اليها من الفساد الذي لا ينحصر واشتهر امرهم حتّى عرفوا به في المشارق والمغارب ولم يبرح الشيخ المذكور من بينهم ولا تصدّى لتغيير المنكر والامر بالمعروف حتّى قبضه الله اليه انتهى محلّ الحاجة من هذه الرسالة المذكورة فمقتضى كلام ابي المعالي هذا خلاف ما استفاض الان وشاع عن الرجل وقول احمد بن موسى الجزّوليّ المذكور ووصفه له بالقطبانيّة لعلّه اراد قطبانيّة الملك فقد رايت في كتاب قوت القلوب لابي طالب المكّيّ رحمه الله ما نصّه وقال ابو محمّد سهل بن عبد الله التستريّ رحمه الله الخليفة اذا كان غير صالح فهو من الابدال واذا كان صالحاً فهو القطب الذي تدور عليه الدنيا قال ابوطالب قوله من الابدال يعني ابدال الملك وقريب من هذا ما رايته ايضاً في اخر كتاب المنتقى المقصور لابن القاضي وامّا السلطان امّا ان يكون وليّاً اوقطباً واحسن من هذا كلّه ما رايته في قواعد الشيخ زرّوق انّ الامام احمد بن حنبل كان يقول السلطان اذا كان صالحاً فهو خير من صالحي الامّة واذا كان فاسقاً فصالح الامّة خير منه وهو قول عدل وحكى صاحب الممتّع انّ السلطان مولاي عبد الله رحمه الله تعالى ذهب لزيارة الشيخ احمد بن موسى الجزّوليّ المذكور وساله تمهيد الملك له من غير طعن ولاضرب واعتذر بانّه لايمكنه العيش بدونه ولا يامن على نفسه ولا تاويه ارض ان تخلّى عنه فقال الشيخ يا عرب يا بربر يا سهل يا جبل اطيعوا السلطان ابا عبد الله فلم يزل ملكه ممهّداً في هدو وسكون الى ان نزل الترك مرّة بمرسى طنجة وسبتة فتخوّف منهم فردّ بريده للشيخ فلمّا لحق به البريد سمع الشيخ يقول قبل ان يراه يا ترك ارجعوا الى بلادكم ويا مولاي عبد الله هنّاك الله في بلادك فرجع الرسول ووردت الانباء على السلطان بانزعاج الترك ورحيلهم في تلك الساعة التي قال فيها الشيخ ما قال ثمّ انّ الشيخ لمّا قدم مرّاكش استدعاه السلطان لداره وضع له طعاماً فابى ان ياكله وقال له من اكل طعام السلطان وهو حلال اظلم قلبه اربعين يوماً ومن اكله وفيه شبهة مات قلبه

اربعين سنة وقوله بمرسى طنجة وسبتة لعلّ صوابه وحجر بادس فان الترك قد نزلوا به كما قال ابن القاضي في درّة الحجال وسياتي وذكر بعضهم انّ السلطان مولاى عبد الله لمّا راى عمارة الجزائر وسفنهم لاينقطعون عن مرسى حجر بادس ومرسى طنجة وتخوّف منهم اتّفق مع النطاغية ان يعطى له حجر بادس ويخليها من المسلمين فتقطع بذلك مادّة الترك في المغرب ولايجدون سبيلاً اليه فنزلوا النصارى على حجر بادس واخرجوا المسلمين ونبشوا قبور الاموات واحرقوها واهانوا المسلمين كلّ الاهانة ولمّا بلغ خبر نزولهم عليها لولده مولاي محمّد وكان خليفة على فاس خرج بجيوشه لاغاثة المسلمين فلمّا كان بوادي اللبن بلغه استيلاؤهم عليها فرجع وتركها لهم ونحو هذا ما ذكرعنه انّ قايده علىّ بن تودة دخل البريجة التى بثغر ازمّور واخذ اسوارها وعزم ان يستاصل في الغد بقيّتها ولايبقى للكفر بها اثراً فكتب له السلطان مولاي عبد الله ينهاه عن ذلك فتراجع النصارى اليها بعد ان ركبوا البحر عازمين على الجلاء عنها ونظير هذا قضيّته مع اهل غرناطة واطال فيها بما استكفيت انا عن كتبه هنا وهذه امور شنيعة ان صحّ انّه فعلها ولست ادخل في عهدتها انّما رايتها في اوراق مجهولة المؤلّف اشتملت على ذمّ هذه الدولة السعديّة وظنّى انّها من وضع بعض اعدائهم لحطّهم من قدرهم واخراجهم عن النسب الشريف ووصفه دولتهم بالدولة الخبيثة فلذلك تجنّبت منها كثيراً من الاخبار التى لاتظنّ باولائك السادات الاشراف رحمهم الله قال الشيخ تاج الدين ابن السبكىّ رحمه الله في طبقاته انّ المؤرّخين على شفا جرف هار لانّهم يستطيلون على اعراض الناس وربّما وضعوا من الناس تعصّباً او جهلاً او اعتماداً على نقل من لا يوثق به قال فعلى المؤرّخ ان يتّقى الله تعالى . الا انّ الملوك لايستغرب في حقّهم ان يهدموا اساس الشريعة ليبنوا منار رياستهم ويستوهنوا عظايم الامور لتطيعهم الرعيّة ساعةً وكيف لا وشراع افئدتهم تلعب به رياح الشهوات فتلتقى سفينة قلوبهم على ساحل بحر القنوط من رحمة الله تعالى والله يسامح الجميع ويتجاوز عن كافّة

عصاة هذه الامّة المشرفة بمنّه وكرمه

ذكر بقيّة اخبار مولانا عبد الله رحمه الله

وما وقع في أيّامه من الاحداث

قال ابن القاضي لمّا ولي مولانا عبد الله الخلافة اشتغل بتاسيس ما بيده وتحصينه بالعدّة والعدد ولم تطمح نفسه للزيادة على ما ملك ابوه قبله وفي جمادى الاولى من سنة خمس وستّين وتسعماية حرّك له الباشا حسين بن خير الدين التركيّ في جيش حفيل من الاتراك فخرج مولاي عبد الله لملاقاته فالتقيا بمقربة من وادي اللبن من عمالة فاس فكانت الدايرة على حسين فرجع منهزماً يطلب ضياصي الجبال الى ان بلغ بادس لانّها كانت للاتراك يومئذ فرجع مولاي عبد الله لفاس ولم يدخلها لوباء كان بها حينئذ وهو وباء عظيم كسى سهل المغرب وجباله وافنى كمّاته وابطاله ولمّا رجع مولاي عبد الله من معركته تلك امر بقتل اخيه ابي سعيد عثمان لامر نقمه عليه فقتل في السنة المذكورة وفي يوم الاربعاء الثامن والعشرين من رمضان سنة اربع وستّين وتسعماية خسفت الشمس خسوفاً عظيماً وبعد صلاة الجمعة اوّل يوم من المحرّم فاتح عام سبعة وسبعين بموحّدة فيهما وتسعماية حدثت زلزلة عظيمة وفي اواخر شوال يوافقه وسط مارس من الشهور العجميّة عام ثمانية وسبعين بموحّدة وتسعماية قدم مرّاكش جراد كثير وفي ذي الحجّة من سنة خمس وثمانين وتسعماية قتل الفقيه السيّد محمّد الاندلسيّ وكان متظاهراً بالزهد والصلاح حتّى استهوى كثيراً من الناس وتبعوه وكانت تصدر منه مقالات من الطعن على ايمّة المذهب رضى الله عنهم ينحو فيها منحى ابن حزم الظاهريّ ويفوه بمقالات شنيعة في الدين فامر السلطان بقتله فاعتصم بالعامّة ووقعت عليه فتنة الى ان قتل وصلب بباب داره من رياض الزيتون انظر الدوحة وفي عام

واحد وثمانين وتسعماية وقعت وقعة البارود التى انهدمت بها القبّة الواسعة بجامع المنصور وانشقّت بها صومعة الجامع المذكور وذلك باحتيال من اسارى النصارى فحفروا تحت الارض وملاوه بالبارود لينقلب الجامع باهله يوم الجمعة فكفى الله المؤمنين شرّ تلك المكيدة ولم يتمكّن لهم الحال على وفق ما ارادوه وفى عشرة السبعين بموحّدة انشا مولاى عبد الله رحمه الله جامع الاشراف والسقاية الملاصقة بالجامع المذكور التى عليها مدار المدينة بالمواسين والمارستان الذي ظهر نفعه ووقّف عليه اوقافاً عظيمةً وهو الذي جدّد ايضاً بناء المدرسة التى بجوار جامع علىّ بن يوسف اللمتونىّ وليس هو الذى انشاها كما يعتقده كثير من الناس بل الذى انشاها اوّلاً هو السلطان ابو الحسن المرينىّ رحمه الله تعالى حسبما ذكره ابن بطوطة فى رحلته وشاع على الالسنة انّ السلطان مولاى عبد الله بنا ذلك بصنعة الكيمياء وانّ الشيخ الصالح ابا العبّاس احمد بن موسى علّمها له لمّا تلمذ له كما سلف وهذا محض كذب وجهل فانّ الذى ينقل عن الشيخ سيّدى احمد بن موسى انّ رجلاً جاء وطلب منه ان يعلّمه صنعة الكيمياء فقال له الشيخ حروف الكيمياء خمسة وهى عدد اصابع اليد فان اردتها يا اخى فعليك بالحراثة والفلاحة فتلك كيمياء الناس لا كيمياء الرصاص والنحاس وايضاً فانّ الشيخ من اكابر الاولياء وما كان ليفتح على مسلم باباً عظيماً من ابواب الفتنة وسبباً بليغاً من اسباب المحنة فانّ هذه الصنعة من اعظم ابواب الفتن وكان الشيخ ينشد هذا البيت لزايريه كثيراً وهو هذا بعينه

عليك باوسط الامور فانّها نجاة ولا تركب ذلولاً ولا صعباً

وقد اجمع اولياء الله تعالى على التحذير من خلطة الكيمياء وطلبها لاحد اوجه ثلاثة اوّلها انّها من المستحيلات لما ذكره ابن سينا مستدلاً بقوله تعالى لا تبديل لخلق الله وكما انه ليس في قدرة المخلوق ان يبدّل القرد انساناً والذئب غزالاً كذلك ليس فى قدرته ان يبدّل الرصاص ذهباً والنحاس فضّة

ولقد تناظر فيها رجلان فقال مجوّزها انكر ما تشاهده فى الصبغ وتغير الجسد الاحمر اصفر والابيض اسود فقال له مانعها لا انكر ذلك الصبغ لانه ليس تغيير اصل وانّما انكر انّ ثوب الصوف الابيض تردّه صنعة الصبغ قطناً او حريراً احمر او اخضر وانّما الصبغ فلا شكّ ان النحاس يصير ابيض ولا يخرجه ذلك عن اصله ولا يسلب عنه اسم النحاس بل يقال فيه نحاس ابيض كما لا يسلب صبغ الصوف عنه اسم الصوف ثانيها انّها جائزة الوجود لاكنّها معدومة في الخارج كما ذهب اليه ابو الفرج ابن الجوزيّ رحمه الله من انّ ثلاثة متّفق على وجودها في الغالب وقد اتّفق على عدم رويتها اهل المشارق والمغارب الكيمياء والغول والعنقاء واخبارها كلّها على وجه السماع والاسنادات وحكاياتها كالموضوعات عن العجماوات والجمادات ثالثها انّها على تقدير وجودها ومعرفتها يحرم تناولها والبيع والشراء بها وقد سئل عنها ابو اسحاق التونسيّ رحمه الله فقيل له احلال هى ان كانت خالصة فقال لو دبّرت الفضّة او غيرها من الاجساد حتّى تصير ذهباً خالصاً لا شكّ فيه فمتى لم يقل بائعها لمبتاعها هذا كان فضّة او غيرها من الاجساد فدبّرته حتّى صار ذهباً كما ترى لكان غاشّاً مدلّساً قال فمتى ذكر ذلك لم يشتره منه احد ويقال كذلك يدبّر غيرك فيرجع الى اصله ومن لم يبيّن فيها فهو داخل في قوله عليه السلام من غشّنا فليس منّا فتكون صنعتها حراماً وذكر ابن عبد البرّ عن القاضى أبي يوسف انّه قال من طلب الدين بالكلام تزندق ومن طلب المال بالكيمياء افتقر وكان ابو محمّد صالح يقول اتركوا ثلاثة لئلّا تجرّكم الى ثلاثة اتركوا شرب الربّ لئلّا يجرّكم الى شرب الخمر واتركوا الاشتغال بصنعة الكيمياء لانّها توقع فى الغشّ والتدليس واتركوا مجالسة العجايز فانّها تجرّكم الى مجالسة الصغائر منهنّ وقيل لبعض الفضلاء لِمَ لم تتحدّث بهذه الصنعة فانّها تسلّى الخواطر فقال قيل للحمار لِمَ لم تحبر فقال انّي اكره مضغ الباطل وانشد

فقلت لاصحابي هى الشمس ضؤها قريب ولاكن في تناولها بعد

وبالجملة فما شاع عن مولانا عبد الله فى ذلك لا اصل له وقد كان اهل الورع يجتنبون الصلاة في جامع الاشراف لما بنى مدّة ويقال انّ موضع ذلك الجامع كان مقبرة لليهود لعنهم الله والله اعلم

ذكر وزرائه وحجّابه وكتّابه وولاة مظالمه

وامّا وزراؤه فمنهم الامير الجليل الفقيه ابو عبد الله مولاي محمّد ابن اخيه الامير مولاي عبد القادر ابن السلطان مولاي محمّد الشيخ رحمه الله وكان من انبل وزرائه والطفهم مسلكاً واخفّهم روحاً له عارضة في النظم والنثر وذكر صاحبنا ابو محمّد عبد الله بن محمّد الفاسيّ رحمه الله في كتابه الاعلام بمن مضى وغبر من اهل القرن الحادي عشر ما صورته قدم الوزير ابو عبد الله محمّد بن عبد القادر من مرّاكش لفاس صانها الله ومعه الفقيه قاضي الجماعة ابو مالك عبد الواحد الحميديّ والفقيه الامام ابو العبّاس المنجور فلمّا تبدّت لهم معالم فاس الجديد وتلظّى للشوق في جوانبهم اوار

وابرح ما يكون الشوق يوماً اذا دَنَت الديار من الديار

انشد الوزير لنفسه بديهةً

اخلّاي هذا المستقى وربوعه وهذي نواعر البلاد تنوح

وذاك المصلّى مسرح الشوق والاسا وهـذي منازل الديار تـلوح

فقال القاضي الحميديّ ايضاً بديهة

وتلك القباب الخضر شبه زبرجد بهـنّ عـوان طرفهـنّ جمـوح
يحسن كاملود من الروض يانـع شذاهنّ من حول الديار تفوح

وقال ابو العبّاس المنجور مذيّلاً ايضاً بديهةً

ويرفلن في الحلّات يرقن بالحلا وفيهنّ انواع الجمـال وضوح
يبادرن ترقيع الكوى بمحـاجر لاقبـال حبّ طـال منه نزوح

ولمّا بلغت الابيات للشيخ الامام الاستاذ ابي العبّاس احمد الزمّوريّ فقـال مذيّلاً ايضاً

تأمّل الى الحسنـاء تحت نقـابها كشمس بدت تحت السحاب تلوح
تجـلّت ربوع المستقى بجمالها وانت الى تلـك القبـاب تروح

وجعل بعضهم البيتين الاوّلين للامـام سيّدي عبد الواحد بن احمد الشريف السجلماسيّ وكان كاتبـاً عند الوزير المذكور ويجعل موضع اخلّاي امولاي والبيتين بعدها للوزير والمستقى بضمّ الميم وسكون السين المهملـة وفتح المثناة الفوقيّة وبعدها قاف مقصور اسم بستان معروف ونظير هذا ما ذكر صـاحبنا المذكور في اعلامه قال كان الوزير المذكور مع كاتبه الامام سيّدي عبد الواحد الشريف في بعض الاسفار وارسلت السماء بغيثها المدرار فقال الوزير

لله اشكو عذاة السفح اذ ركدت سرى المطايا وحادي الريح يحدونا

فاجابه كاتبه المذكور

والغيم في الافق قد ارخى ذوايبه باسهم الوذق لا ينفكّ يرمينا

فقال الوزير

حتّى استوى الماء في الأكام واستترت معالم الرشد لا قريب يهدينا
فظلّت الخيل فى الامواج سابحة سبح الاساطيل لبت الدهر يهدينا

فاجابه الكاتب ايضاً رحمه الله

والنفس في قلق ليس بالفتها والشوق يحدو بنا والحال يقضينا

فقال الوزير المذكور رحمه الله

كأنّنا لم نبت والوصل ثالثنا حتّى غدا الطير فوق الصرح يغشينا

واخبار هذا الوزير رحمه الله كثيرة ومحاسنه اثيرة وخصاله السنيّة عظيمة خطيرة توفّى رحمه الله في عشرين من جمادي الثانية عام خمسة وسبعين بموحّدة وتسعماية ومن حجّابه القايد عبد الكريم بن مومن بن يحيي الجندي العلج وابن تودة وقاسم الزهروني واحمد الهبطي ومن ولاة مظالمه ابو عمران موسى بن مخلوف الكنسوسي وهو والي الشرطة وكان فقيهاً مشاركاً وذكر بعضهم انّ الشيخ الصالح سيّدي احمد بن موسى في بعض قدماته على مولاي عبد الله انحشر الناس لزيارته فوقف ابو عمران هذا يذود عنه وهو يقول لهم رحمكم الله من زار خرج فسمعه الشيخ فقال له لا تقل ذلك بل قل من جار خرج واما كتّابه فمنهم السيّد محمّد بن عبد الرحمن السجلماسي والسيّد محمّد بن احمد

بن عيسى وغيرها وامّـا قضاته بمرّاكش فالفقيه قاضى الجماعة ابو القاسم بن علىّ الشـاطبىّ وبفـاس ابو عبد الله العوفىّ وعبد الواحد بن احمد الجميدىّ وغيرهما بحسب الاحيان والاعوام والملك والبقاء للواحد العلّام

ذكر الخبر عن وفاة مولانا عبد الله

رحمه الله تعالى وسببهـا

قال الفقيه ابو العبّاس احمد بن القاضى رحمه الله في شرح درّة السلوك توفّى ابو محمّد مولانا عبد الله الغالب بالله في السابع والعشرين من رمضان سنة احدى وثمـانين وتسعماية بسبب غمّ كان يعتريه . وهذا الغمّ الذي كان به هو المسمّى على السنة العامّة بالضيقة اعاذنا الله منهـا وذكر غيره انّه توفّى بشوال بسبب تكلّفه الصيام فعدّت عليه العلّة الموصوفة وشاع على الالسنة انّه بات يصلّى ليلة سبع وعشرين فوافته المنيّة وهو ساجد وذلك كذب ودفن رحمه الله عند ضريح ابيه بقبور الاشراف وقبره معروف وممّـا نقش على الرخامة التى على قبره

ايا زائري هب لي الدعاء تكرّما ... فانّي الى فضل الدعـاء فقير
وقد كان امرُ المؤمنين وملْكهم ... الىّ وصيتى في البـلاد شهير
فها انا هذا صرت ملقى بحفرة ... ولم يغـن عـنّى قائد ووزير
تزوّدت حسن الظنّ بالله راجيى ... وزادي بحسن الظنّ فيه كثير
ومن كان مثلى عالمـاً بجنـانه ... فذاك بنيل العفـو منه جدير
وقد جاء انّ الله قال تفضّـلا ... الى مـا يظنّ العبد بي سيصير

وحكى انّ ابنه ابا عبد الله لمّا قرا هذه الابيات عاقب ناظمها وقال له انّ قولك

بحفرة دسيسة وتلويح الى الحديث الكريم القبر روضة من رياض الجنّة او حفرة من حفر النار فهلّا قلت ببلقع او نحوه

ذكر الخبر عن دولة السلطان ابى عبد الله مولاى محمّد

ابن مولانا عبد الله ابن مولانا محمّد الشيخ رحمه الله

بويع له بعد وفاة ابيه سنة احدى وثمانين وتسعمائة وكان ابوه عهد له بالخلافة في حياته فلمّا توفّى ابوه انعقدت له البيعة المستانقة بحضرة مرّاكش ووصلت له البيعة لمدينة فاس قال ابن القاضى وامّه امّ ولد وكنيته ابو عبد الله ولقبه المتوكّل على الله ويعرف عند العامّة بالمسلوخ لانّه سلخ جلده بعد وفاته وملئ تبناً كما سيأتي ان شاء الله تعالى ووصفه غيره بانّه كان متكبّراً غير مبالٍ باحد ولا متوقفاً في الدماء شديد العسف على الرعيّة وكان مع ذلك فقيهاً مشاركاً في الفنون اديباً مجيداً قويّ العارضة نظماً ونثراً ومن شعره

خليليّ ما يخفى انحصاري عن الصبا فخلّا عقالي قد اضرّ بي الربط
ولا تجعلا من لام او من تلوّما فانّ بحور اللوم ليس لها شطّ

وقد خمّس هذين البيتين الفقيه الامام الشيخ الاستاذ ابو العبّاس احمد الزمّوريّ رحمه الله فقال

الا فاعجبوا من عاذل لي قد اغربا فكم ذاد عن عينى كراها واذنبا
و في شرعتى حلّ الخلافة مذهبا خليليّ مايخفى انحصاري عن الصبا
فخلّا عقالي قد اضرّ بي الربط

الا فارعدوا عن عدل صبّ تظلّما وبالبين صار القلب منه متيّما
والحاظه تنهلّ عن غيره دما ولا تجعلوا من لام او من تلوّما
فانّ بحور اللوم ليس لها شطّ

ومن شعره ايضاً قوله

فقم بنا نصطبح قهواء فانية في وجهها عسجد في وجهه نقط
وانهض اليها على رغم العدا قلقا فانّ تاخير اوقات الصبا غلط

وقد خمّس هذين البيتين الفقيه المذكور ايضاً فقال

كم شادن بسهام اللحظ ءاونة رمى فؤادي وكم حوراء سافكة
وفي العقار اغتنم داباً مسالمة فقم بنا نصطبح قهواء فانية
في وجهها عسجد في وجهه نقط
وخلّ عن عاذل باللوم قد نطقا وبَكّتَنْه واكّد فيه مطفقا
لايعرف الشوق الّا والتزم ارقا وانهض اليها على رغم العدا قلقا
فانّ تاخير اوقات الصبا غلط

ومن شعره ايضاً رحمه الله قوله

ساروا فسار فؤادي اثر ظعنهم وخلّفوني نحيل الجسم حيرانا
لاافترّ ثغر الثرى من بعد بينهم ولاسقى هاطلٌ ورداً وريحانا

وقد خمّسه ايضاً الفقيه المذكور فقال

استخبروا خبري بعد انفصالهم قد اضرمت في الحشا نار بعادهم
وصبوتي لن تري نفسي لغيرهم ساروا فسار فؤادي اثر ظعنهم

وخلّفوني نحيل الجسم حيرانا
قد كان صفو حياتي يوم قربهم ولوعتي في اقتراب من بساطهم
والان ابقيت في فيفا غرامهم لافترّ ثغر الثرى من بعد بينهم
ولاسقى هاطل وردا وريحانا

ولم تطل خلافته رحمه الله الّا انّه بقى الى اواخر سنة ثلاث وثمانين وتسعماية فاتاه عمّه ابو مروان عبد المالك بجيوش الاتراك فاستلبه ملكه ونبذ دولته وكان خليفته بمرّاكش القايد علىّ بن شقرا وحاجبه احمد بن حمّ الدرعىّ وكتّابه يونس بن سليمان التاملىّ وعلىّ بن ابي بكر وغيرهما

ذكر الخبر عن مجئ ابى مروان مولانا عبد المالك

بن مولانا محمّد الشيخ

بجند الاتراك وغلبته على ابن اخيه مولاي محمّد بن عبد الله المذكور

لما توفّى السلطان ابو عبد الله محمّد الشيخ رحمه الله وولي بعده ولده مولاي عبد الله رحمه الله كما تقدّم وكان مولانا عبد المالك الغازي واحمد المنصور بسجلماسة وحين بلغتهما وفاة ابيهما واستيلاء اخيهما على الملك بعده فرّا الى تلمسان خوفاً على انفسهما منه ولحق بهما اخوهما مولاي عبد المومن فبقيا بها مدّة ثمّ فرّا الى الجزائر ولم يزالا مقيمين بها الى ان بلغهما خبر وفاة اخيهما عبد الله واستبداد ولده مولاي محمّد بعده بالملك فسار عبد المالك الى اصطنبول وهى القسطنطنيّة العظمى قاصداً للسلطان مراد العثمانىّ ابن السلطان سليمان المدعوّ بسليمان شاه ابن السلطان سليم خان العثمانىّ فنزل عليه وطلبه ان يمدّه

بجيش يذهب به الى المغرب فينتزع الملك من ابن اخيه فغضب عليه السلطان مراد ولم يوافقه على غرضه فلم يزل عنده هو وامّه سحابة الرحمانيّة الى ان اجابهما الى ذلك وذكر بعضهم انّ سبب ذلك انّ تونس تغلّب عليها العدوّ الكافر فسكن قصبتها وسكن المسلمون نصفها بعد ان ضربت عليهم الجزية ورضوا بالبقاء تحت الذمّة وذلك بسبب انّ مالك افريقية ومالك تونس كانا اخوين ونشبت بينهما نيران الحروب الى ان تغلّب ملك افريقية على اخيه ملك تونس ففرّ ملك تونس الى طاغية النصارى فجاء معه بجيوش الروم الى ان تملّكوا تونس كما ذكر وفعلوا فيها الافاعل العظيمة وانتهكوا حرمات المساجد وذكر المنجور في فهرسته انّ ابا الطيّب الظريف التونسيّ كان واعظاً بجامع الزيتونة رحل لفاس بعد اخذ العدوّ لتونس فخاطبه قاضي الجماعة بفاس ابو الحسن عليّ بن هارون رحمه الله بابيات منها قوله

ساقك الغيث اذ الغيث انهمر ... حضرة الانس البديع المونّس
لم يكن الّا كلمح البصر ... او بريق لاح لي يا تونس
يا لها من فجعة زبد الخبر ... انّها شقيقة الاندلس
كم خدود في وجوه كالقمر ... خدّها دمع جرى من نرجس
حالكات غيّرت منها الصور ... ذلّ اسر بعد عزّ الانفس
اصبحوا اسرى بايدي مُنْ كفر ... ملّكت ارقابهم بالافلس
ما لترك بقسى ووتر ... اخرجوهم من ظلام خندس
واستعينوا بعليّ وعمر ... وابي بكر الرضيّ مع أَنَس
وارغبوا الله مسهّ وبكر ... فعسى فتح من الله عس
ربّ بشرى بنصر وظفر ... عاجلاً قبل حلول الرمس
وارى الكافر مقبوضاً يجر ... بارتفاع البيض فوق الارءس
وابا الطيّب طاب ونشر ... كتبه يقرا فوق الكرس

وعلا الاسلام والحقّ انتشر بعلوّ هاشمي الانفس

فاجابه ابو الطيّب بابيات منها قوله

أيها الشيخ الفقيه المعتبر سيّد العصر وصدر المجلس
قد تفضّلتم بنظم كالدرر حلّ من قلبي محلّ النفس
هاجني شوق اقتفاء الاثر ان اكن عن دركه ذا فلس
كلّما هبّ نسيم للسحر وقعت اطياره للغلس

وقال في النفحة المسكية انّ النصارى لمّا استولوا على تونس وانتزعوها من يد بقيّة الامراء الحفصيّين قسموا البلاد بينهم وبين من بقي تحتهم من المسلمين نصفين فسكن النصارى قلعة البلاد وما والاها وسكن المسلمون بقيّته بعد ان هدم النصارى في جانب المسلمين كلّ ما كان حصيناً من بابٍ ودار وحائط ثمّ بنوا حصناً اخر منيعاً على باب المدينة خارجها ثمّ بنوا مثله في وسط بحيرة ممدودة من المرسى الى باب المدينة وعند المرسى حلق من البحر يدخل اليها وبها سمّي حلق الوادي وليس هناك واد عذب ثمّ بنوا على المرسى حصناً عظيماً وقشتيلاً منيعاً متّقناً عجز الترك لمّا اخذوه عن هدمه وملئوه بالانفاض والعدّة والرجال والقوت بحيث ايقنوا انّهم ملكوا تلك البلاد وانّه لا ياتي من يقدر على اخراجهم منها ثمّ انّ الترك انتدبوا اليها وخرجوا اليها فيقال انّ السلطان مراد بينما هو نايم ذات ليلة وقف عليه رجلان في النوم وقالا له ان لم تغث العرب فما انت من المسلمين فتوضّا ورجع الى فراشه مستعيذاً بالله من الشيطان فوقفا عليه وقالا له ما قالا اوّلاً فقال لهما في المرّة الثانية من انتما فقال احدهما انا ابن العروس وهذا ابن الكلاعيّ وهما من صلحاء تونس فانتبه وقصّ رؤياه على اصحابه فاعلموه بخبر تونس كيف وقع بها الواقع فوجّه اليها

جيوشاً حافلة في البحر ففى كتاب النفحة المسكيّة ايضاً انّ عدد السفن التى وجّه اليها اربعماية وخمسين سفينة من القسطنطنيّة العظمى ومن غيرها من سائر افريقية فيها ماية الف مقاتل وازيد وبعث معهم مولانا عبد المالك رحمه الله فهزم الله الكفرة ومكّن من رقابهم السيف وطهّر البلاد من نجسهم بعد ان حاصرهم اربعين يوماً وذلك عام اثنين وثمانين وتسعماية فكان مولانا عبد المالك اوّل من ارسل بالبشارة مع اصحابه الى السلطان العثمانيّ فبلغت الرسالة امّه سحابة الرحمانيّة فاعطت للسلطان المذكور ما كتب به ابنها والتمست منه ان يعطيها في بشارتها امر اهل الجزائر بالذهاب معه للغرب فاعطاها ذلك فجاء عبد المالك مع امّه بكتاب السلطان الى اهل الجزائر يامرهم بالمسير معه الى تملّك ما كان بيد ابائه فطلبه اهل الجزائر بالراتب فقال لهم اسلفوني وعلى الخلاص فاتّفق ان يعطيهم عشرة الاف في كلّ مرحلة وكان عدد جيش الترك اربعة الاف وقال في شرح الدرّة انّ عبد المالك طلب من رايس الاتراك ان يعينه بحصّة منهم توصله الى حدّ بلاده ليدخلها اذ الجند كلّه جند والده فلا يمكن ان يقاتلوه ويضربوه في وجهه لتعظيمهم ايّاه فاسعفه على مراده وارسل معه عصابة وحصّة قليلة فاقبل بهم الى موضع يقال له الركن من احواز بنى وارثين من بوادي مدينة فاس المحروسة فلمّا سمع ذلك نجل اخيه مولاي محمّد بن عبد الله خرج الى لقائه بنفسه فالتقى الجمعان بالموضع المذكور فلمّا التقيا فرّ رايس جند الاندلس سعيد الدغاليّ الى عبد المالك وكان عبد المالك يكاتب دايرة مولاي محمّد وبطانته ورايس اجناده ويعد طائعهم ويوعد عاصيهم فلمّا سمع مولاي محمّد بفرار جند الاندلس الى عمّه مع قايدهم بتّ في عضده وفشلت ريحه وايقن بالنكبة ظنّا منه انّ جنده كلّه سيفعل مثل الدغاليّ فكان ذلك سبب جزعه وفراره من المعركة وسبب انخرام ملكه واقامة ملك عمّه ويقال انّ بعضهم لمّا راى القائد كرمان واولاد عمران هربوا الى عبد المالك جاؤا الي محمّد وقالوا له انّ القائد ابن شقرا غدر وفرّ الى عبد المالك فارتاع

محمّد لذلك وانقلب منهزماً وانتهبت خزاينه واوقدوا فيها النار حتّى رئي البارود من الجبال ودخل محمّد فاس الجديد واخذ ما يعزّ عليه من الذخائر ثمّ خرج فاراً متوجّهاً الى مرّاكش فلحق به القائد علّي بن شقرا بوادي النجا بمقربة فاس واغلظ له في القول ولامه على عدم التثبّت والتأنّي والصبر وكان امر الله قدراً مقدوراً

ذكر الخبر عن دولة ابي مروان مولانا عبد المالك

واستيلائه على المغرب

قال ابن القاضي كان دخول ابي مروان عبد المالك الى فاس واستيلاؤه عليها بعد هزيمة ابن اخيه اواخر ذي الحجّة سنة ثلاث وثمانين وتسعماية وبعد ان دخلها وبايعه اهلها وبقي فيها اياماً طمحت نفسه الى اتباع ابن اخيه لمرّاكش ولمّا عزم على التوجّه تلقاء مرّاكش طلبه الترك ان يردّهم الى بلادهم وان يعطيهم المال الذي اتّفق معهم عليه وهم يسمّونهم بلغتهم البقشيش فاعطاهم اربعماية اوقية لكل واحد واستسلف المال من كبراء فاس حتّى يتّسع عليه الحال فاعطاهم خمسماية الف واعطاهم عشرة من الانفاض منها النفض الكبير الذي له عشرة افواه وزادهم من تحف المغرب وظرفه ما سلّى به انفسهم وركب لوداعهم بنفسه الى نهر سبو ثمّ رجع وتوجّه لمحاربة ابن اخيه بجنوده التي اقامها هو وكان غرسها بيده وبما انضاف اليه من جند ابن اخيه فسار بهم الى مرّاكش ولمّا سمع ابن اخيه بخروجه اليه وقصده مرّاكش تهيّا لملاقاته وسار لمنازلته فالتقى الجمعان بموضع يقال له خندق الريحان على مقربة من الشراط من احواز سلا فكانت الهزيمة ايضاً على محمّد ابن عبد الله وفرّ مثل دابه وعادته وتبعه عمّه ابو العبّاس المنصور خليفة ابي مروان فلمّا سمع محمّد باتباعه

بعد بلوغه الى مرّاكش مرّ عنها لجبل درن واسلم له مرّاكش فدخلها ابو العبّاس المنصور نائباً عن اخيه ابي مروان فلمّا استقرّ بمرّاكش لحق به اخوه السلطان ابو مروان ودخلها واقام بها مدّة ثمّ خرج منها في طلب ابن اخيه فعميت عليه انباؤه فرجع ابو مروان لمرّاكش ثمّ انّ ابن اخيه لم يزل يجول في جبال السوس لا يقرّ له قرار الى ان اضاف لنفسه طائفة من الصعاليك واجتمع له منهم شبه الجيش فتوجّه بهم الى مرّاكش فسمع به ابو مروان فخرج لملاقاته فخالفهم محمّد في الطريق وسلك طريقاً غير طريق ابي مروان وقصد مرّاكش فدخلها باتّفاق اهلها ونصروه وكتبوا له البيعة الّا انّه لم يتمكّن من القصبة لانّ ابا مروان ترك بها اخته الستّ مريم في نحو ثلاثة الاف من الرماة فتحصّنوا بها وبلغ الخبر ابا مروان بحلول محمد مرّاكش فرجع مسرعاً الى ان وافاه بمرّاكش فحاصره بها وكتب الى اخيه احمد المنصور ان ياتي بجيش فاس مسرعاً وكان احمد المنصور لمّا دخل مرّاكش اوّلاً وهرب ابن اخيه محمّد الى سوس طلب من اخيه ابي مروان ان يخلّفه على فاس فاعطاه اياها وكان الوزير عبد العزيز المدعوّ عزوز بن سعيد الوركيتيّ حاضراً للطلب والعطيّة فانكر ذلك عليهما ولم يره صواباً وقال لهما لا ينبغي لكما ان تجالسا حتّى يحكم الله بينكما وبين ابن اخيكما فغاظ ذلك احمد المنصور وظنّ انّ ذلك من سوء راي عبد العزيز في جانبه ومن بغضه فيه ولم ينصتا لمقالة الوزير فذهب المنصور خليفة الى فاس فلمّا رجع المنصور الى مرّاكش بالجيش تلاقى مع عبد العزيز فقال له وقفت على الراي اوّل الفكرة اخر العمل فبانت للمنصور نصيحته وزال عنه ما كان يختلج في صدره ولمّا جاء المنصور بجيش فاس فرّ محمّد الى السوس وبقي اهل مرّاكش متمادين على الحصار الى ان اتّفق ابو مروان مع اعيان كزارة فادخلوه من الاسوار وبعض الانقاب ولمّا توجّه محمّد الى السوس تبعه المنصور فكانت بينهما حروب عظيمة اتاح الله فيها النصر للمنصور وهزم محمّد كعادته ففرّ الى جبال درن ثمّ دخل طنجة مستصرخاً بعظيم الروم والى الله عاقبة الامور

يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء ولا يسال عمّا يفعل

ذكر الخبر عن مولانا محمّد بن عبد الله واستصراخه بالنصارى وما وقع بسبب ذلك

كان مولانا محمّد بن عبد الله عفا الله عنّا وعنه لمّا ضاق ذرعاً بعمّه ابي مروان لم يجد منه ملجاً ولا مفراً ذهب لطاغية النصارى عظيم نصارى بردقيس فاستصرخ به واستغاثه على عمّه فاغاثه وبعث معه جيوشاً كثيرة ومن هنالك كتب مولاي محمّد رسالة الى اعيان المغرب من علمائه واشرافه وذوي الراي فيه يخطّى عليهم في نكث بيعته ونقضها ومبايعة عمّه من غير موجب شرعيّ وقال لهم ما استصرخت بالنصارى حتّى عدمت النصرة من المسلمين وقد قال العلماء يجوز للانسان ان يستعين على من غصبه بكلّ ما امكنه وهدّدهم في رسالته وابرق وارعد وعدّد واوعد وقال فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله وسمّى النصارى اهل العدوة واستنكف عن تسميتهم نصارى فاجابه علماء الاسلام رضى الله عنهم عن رسالته تلك برسالة دافعة لحيش اباطيله وفاضحة لدكيك تاويله وهذا نصّ تلك الرسالة المذكورة حرفاً حرفاً فالحمد لله كما يجب لجلاله والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد خير انبيائه وارسله والرضى عن اله واصحابه الذين هاجروا لدين الاسلام وهجروا دين الكفر فما نصروه ولا استنصروا به حتّى اسّس الله دين الاسلام بشروط صحّته وكماله وبعد فهذا جواب من كافّة اهل المغرب من الشرفاء والعلماء والصلحاء والاجناد والرؤساء وفّقهم الله لمولانا محمّد ابن مولانا عبد الله السعديّ رحمهم الله عن كتابه الذي استدعاهم فيه لحكم الكتاب واستدلّ بحججه الواهية الاطناب المنتكبة عن الصواب قائلين له عن اوّل حجّة صدر بها الخطاب لو رجعت على نفسك باللوم والعتاب

لعلمت انّك المحجوج المصاب فقولك خلعنا بيعتك التى التزمناها وطوّقناها اعناقنا وعقدناها والله ما كان ذلك منّا عن هوى متبع ولا عن سبيل خارج عن طريق الشرع مبتدع وانّما ذلك منّا على منهج الشرع وطريقه وعلى الحقّ وتحقيقه وسنشرح لك ذلك ونبيّنه ونسطره لك بادلّة الشرع وسنّته وتعيينه نعم كنت سلطاننا بما عقد لك والدك من البيعة وترك لك من الاموال والذخائر والعدّة والعدد والحصون ما لم يتهيّا مثله لاحد من اسلافكم الكرام رضوان الله عليهم اجمعين فجاهدوا بما حصل لهم من ذلك في الله حقّ جهاده حتّى استخلصوا من ايدي الكفّار رقاب عباد الله وحصون بلادهم واسّسوا لدين الله قواعد واركاناً وملكوا من المغرب بلاداً معتبرة واوطاناً فلمّا وصل اليك ذلك القت اليك العباد اعنّتها وملّكتك ازمّتها غير مبدلين ولا مغيرين ولا طاغين ولا منكرين الى ان قام عليك عمّك فجّتك التى لا يمكنك جحدها حسبما ثبت كما يجب عقدها فخرجت مبادراً له برفعها ولقيته بها وانت واسطة عقدها وحامل راية عهدها وعمّك في فئة لا يخطر على بال عاقل ان يقابل جنداً من جنودك او يدافع ما تحت لواء من الويتك وبنودك فما هو الّا ان جرى القتال وحضر النزال رجعت على عقبك هارباً هروب مطرود القصاص وجنودك تناديك ولاتَ حين مناص فتركت عددك ومحلّتك بكلّ ما فيها وخلّفتها لعدوّك ينهبها ويسبيها وهربت عن مدينة فاس المحروسة وسكّانها ينادونك لِمَ تركتنا والى من تكلنا فلم تلتفت اليهم واسلمت بلادهم بما فيها من خزائن الاموال والاعداد الوافرة من الرجال والاسوار المرتفعة المانعة والمدينة المشهورة الجامعة فاصبح اهلها واليد العادية من السفهاء والمفسدين تريد ان تمدّ ايديهم الى الحريم والاموال والاولاد والطارد والتلاد ولا دافع عن الضعفاء والمساكين الّا الله سبحانه الذين قال في مثلهم ومن اصدق من الله قيلا لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فما امكنهم بعد هروبك عنهم واسلامك لهم فوضى الّا النظر في امرهم واعمال الفكر في التدبير على انفسهم فبينما هم كذلك اذا بعمّك وجنوده

على باب مدينتهم قائماً بحجّته سالكاً في ذلك سبيل ابيه رحمه الله ومحجته حسبما تقرّر ذلك عندكم وظهر ولم يخف عنكم منه عين ولا اثر اذ كان مولانا محمّد الجد الاكبر عهد لاولاده مولانا احمد ومولانا محمّد الشيخ واخوانهما الّا يتولّى الخلافة منهم ولا من اولادهم الّا الاكبر فالاكبر فالتزموا ذلك الى ان كبر اولادهم فطلب جدّك من اخيه الوفاء بذلك فامتنع فقاتله على ذلك حتّى تمّ له الامر وانتظم فعهد لوالدك الذي كان اكبر اولاده فلم ينازعه احد في ذلك الى ان القى والدك رحمه الله ذلك وعهّد اليك ولم ينازعك احد فابى الله الّا ان يحقّ الحقّ فاعطى الملك لعمّك الذي هو اكبركم بعد ابيك فان سلّمت هذا فاىّ حجّة تدلى بها واىّ طريق تعتمد عليها وان انكرت هذا فلا اثر لخلافة ابيك من قبلك ولا لجدّك من قبله لثبوتها لعمّكم مولاي احمد اذ لا حجّة حينئذ لجدّكم في القيام على اخيه مولانا احمد فخلافته صحيحة لبيعة جدّك له فلم يبق الّا التغلّب الذي تدلي به في مسالة عمّك وفي قيامه عليك فان كنت تريد ان تسقط حجّته بالتغلّب عليك فحجّتك ابين في السقوط لعدم ثبوت الخلافة لمن عهدها لك اذ المعدوم شرعاً كالمعدوم حسّاً فلم يبق بينكم الّا الملك بعد ابي ليلى لمن غلب فيلزمك على هذا ان تثبت ما عقده مولانا الجدّ رحمه الله في خلافته لعمّك القائم عليها اذ هو اكبركم فى هذا التاريخ فان قلت انّ ما عقده الجدّ غير صحيح قلنا قد ذكر الامام الماوردىّ رحمه الله فى كتاب الاحكام السلطانيّة له فى باب عقد الخلافة انّ عبد الملك بن مروان رتّبها في الاكبر فالاكبر من بنيه فلم ينازعه احد في ذلك فان قلت فعل عبد الملك ليس بحجّة قلنا سكوت العلماء على ذلك وهم ما هم في زمانه هو الحجّة اذ لا يمكن لهم ان يسكتوا على باطل واقرار اهل العصر الواحد على مسئلة من المسائل واتّفاقهم عليها يقوم مقام الاجماع الذي هو حجّة الله في ارضه وكان ايضاً من محفوظات علماء فاس المحروسة ما خرجه مسلم رضى الله عنه في صحيحه في كتاب الامارة ما نصّه قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يرفع لكلّ غادر يوم القيامة لواء يعرف به يقال هذه غدرة فلان

بن فلان الاّ ولا غادر اعظم غدراً من امير عامّة غدرهم قال القاضى ابو الفضل عياض بن موسى رحمه الله في كتاب اكمال المعلّم على شرح مسلم يعنى لم يحظّهم ولم ينصح لهم ولم يوف بالعقد الذي تقلّده من امرهم وفي الباب بنفسه عنه عليه السلام ما من امير استرعاه الله رعية فلم ينصح لهم الاّ لم يرح رايحة الجنّة وانّ ريحها ليوجد من مسيرة خمسماية عام وفي كتاب الاكمال بنفسه قال القاضى والذي عليه الناس انّ القوم اذا بقوا فوضى مهملين لا امام لهم فلهم ان يتّفقوا على امام يبايعونه ويستخلفونه عليهم ينصف بعضهم من بعض ويقيم لهم الحدود فلمّا اسلمتهم واصبحوا بغير امام وعمّك يدلي بحجّته التى ذكرنا لك مع ما حفظوه من كلام النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وكلام السلف الصالح وايسوا من رجوعك لهم وبقوا فوضى مهملين لم يسعهم الاّ الرجوع لما عليه الناس رضوان الله عليهم فاتّفقوا على ان يبايعوا عمّك لما ذكرنا لك من الحجج التى لا يسعك جحدها الاّ على وجه المكابرة فاطمانّ الناس وسكنوا وانفتحت السبل واقيمت الحدود وارتفعت اليد العادية فان قلت الان يجب على اهل فاس ان يقاتلوا على البيعة التى التزموها لك قلنا انّما يلزمهم القتال ان لو اقمت بين اظهرهم فيكون القتال على وجه شرعيّ لانّ القتال على الحدود الشرعيّة انّما يكون بعد نصب امام يصدر الناس على رايه ويمكنك ايضاً جحدها ايه ثمّ وصلت مرّاكش الغراء التى تجبى اليها الاموال من البوادي والامصار وتشدّ اليها الرحال من سائر النواحى والاقطار فالقيك اهلها بالرحب والسرور وانواع الفرح والحبور فوجدت خزائنها تموّج ملأً من كلّ شئ فامّا اسوارها ورجالها فهى كما قيل تربة الوليّ والبرج البنى الجلى ودرج الحمى فحلّتها وتمكّنت من اموالها وخزائنها ووافقك اهلها فما نكثوا ولا غدروا ولا خرجوا عليك في سلطانك ولا نكروا فطلبت ايضاً قتال عمّك وجنّدت جنوداً لا يجمعها ديوان حافظ ولا يحيط بعدّها لسان لافظ فخرجت اليه تجرّ اعنّة الخيل وراءك كالسيول والرماة ملات الهضاب والتلول فما كان حديثك الاّ ان وقع القتال وحضر الضرب والطعان والنزال

فبادرت هارباً محكماً للعادة تاركاً للروساء من اجنادك القادة فخلّت بهم الخطوب والرزايا واختطفتهم ايدي المنايا فتركت ايضاً محلّتك بما فيها من حريمك واموالك وعدّتك ورجالك ثمّ اسرعت هارباً لمرّاكش فما صدّك احد من اهلها ولا قال لك لستَ ببعلها فعملوا على القتال معك والتمنّع باسوارها الحصينة والحصار داخل المدينة فلمّا كان الليل غدرتهم وغدرت بناتك ونساءك واخواتك وعمّاتك وخرجت عنهم من القصبة وتركتهم لا بوّاب عليهم ولا حارس ولا راجل ولا فارس فيا لها من مصيبة ما اعظمها ومن داهية ما ادهمها ولولا فضل الله ولطفه ووعده بتطهير اهل البيت لامتدّت اليهم ايدي السفلة من الفسقة فاي حجّة تبقى لك بعد هذا واي كلام لك بين الرجال يا هذا ثمّ جاءها عمّك ايضاً بما سلف من الحجج فوجد اهلها في لطف الله سبحانه وهم يحرسون اولادهم وديارهم من اليد العادية فانقذهم الله به ايضاً فبايعوا عمّك واطمانّوا وسكنوا ثمّ هربت الى الجبل عند صاحبه فصرتما في نهب اموال الرعيّة وسفك دمائهم واكثر ما صفى لك من ذلك اهل الذمّة المصغرين بحكم القرآن الداخلين تحت عهد سيّد الثقلين في الامن والامان فانت واياهم في استيلائك وظلمك كما قيل

ان هو مستولياً على احد الّا على اضعف المجانين

ولم تبال بقول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم انا خصيم من ظلم ذمياً يوم القيامة ثمّ خربت العامر وافسدت ما شيد الاسلاف للاسلام من المآثر فلمّا راى اهل السوس الاقصى ذلك ايقنوا انّك انّما قصدت خراب الاسلام واهله فتنكّب عنك اهل الدين والعلم منهم وبقيت كما قيل كجلد الاجرب فان قلت انّ اولائك الخلق لم يبايعوا عمّك فتنقص بهم ما قررناه قلنا لم يطعن في خلافة امير المومنين علىّ بن ابي طالب رضى الله عنه من تخلّف عنها من اهل الشام وفيهم من قد علمت من الناس واجماع على صحّة بيعته ويسمّى من تخلّف عنها باغيا

لقول النبي صلّى الله عليه وسلّم لعمّار تقتلك الفئة الباغية فقتله اصحاب معاوية رضى الله عنه والحديث من اعلام نبوّته عليه الصلاة والسلام والقاعدة انّ ما اجمع عليه من يعتبر من اهل العصر الواحد هو المعوّل عليه ولا يعدّ خلاف من خالفه خلافاً وهذا كلّه بالنظر الى ما كان من حديثك قبل التحزّب مع عدوّ الدين والاخذ في التخليط العظيم على المسلمين بان اتّفقت معهم على دخول اصيلا واعطيتهم بلاد الاسلام فيا لله ويا لرسوله هذه المصيبة التى احدثتها وعلى المسلمين فتقتها ولاكن الله تعالى لك ولهم بالمرصاد ثمّ لم تتمالك ان القيت نفسك اليهم ورضيت بجوارهم وموالاتهم كانّك ما طرق سمعك قول الله سبحانه يا ايّها الذين آمنوا لا تتّخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض ومن يتولّهم منكم فانّه منهم قال ابو حيّان رحمه الله اي لا تنصروهم ولا تستنصروا بهم وفي كتاب القضاء من نوازل الامام البرزلي رحمه الله انّ امير المؤمنين علىّ بن يوسف بن تاشفين اللمتونيّ رحمه الله استفتى علماء زمانه رضوان الله عليهم وهم ما هم في استنصار ابن عبّاد الاندلسيّ بالكتاب الى الافرنج ان يعينوه على المسلمين فاجابه جلّهم رضى الله عنهم بردّيّته وكفره فتامّل هذا مع قضيّتك تجدها احرويّة ومناسبة قضيّة ابن عبّاد في عقدها بناءً على انّه متى طرق الكفر وجب العزل وناهيك بقول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عليكم بالسمع والطاعة ولمّا افتى به العلماء رضوان الله عليهم من ردّة من استنصر بالنصارى على المسلمين فهو نصّ جلى في وجوب خلعك وسقوط بيعتك فلم يبق لك الاّ منازعة الحقّ سبحانه في حكمه ومن يشاقق الله ورسوله فانّ الله شديد العقاب وامّا قولك في النصارى انّك رجعت الى اهل العدوة واستنكفت ان تسمّيهم بالنصارى ففيه المقت الذى لايخفى وقولك رجعت اليهم حين عدمت النصرة من المسلمين ففيه محظوران يحضر عندهما غضب الربّ جلّ جلاله احدهما انّك اعتقدت انّ المسلمين كلّهم على ضلال وانّ الحقّ لم يبق من يقوم به الاّ النصارى دمّرهم الله والعياذ بالله والثاني انّك استعنت بالكفّار على المسلمين وفي

الحديث انّ رجلاً من المشركين ممّن عرف بالنجدة والشجاعة جاء الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فوجده يحدّ شفرة فقال يامحمّد جئت لانصرك فقال له النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ان كنت تومن بالله واليوم الاخر فقال لا افعل فقال له عليه السلام انّي لا استعين بمشرك وما سمعته من قول العلماء رضى الله عنهم في الاستعانة بهم انّما هو بان تجعلهم خدمة لازبال الدوابّ ونحو ذلك لا مقاتلة فامّا الاستعانة بهم على المسلمين فلا يخطر الّا على بال من قلبه وراء لسانه وقولك يجوز للانسان ان يستعين على من غصبه بكلّ ما امكنه وجعلك قولك هذا قضيّة انتجت لك دليلاً بجواز الاستعانة بالكفّار على المسلمين ففى ذلك من مصادمة للقرءان ما لايخفى وهو عين الكفر ايضاً والعياذ بالله وقولك فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله ايه انت مع الله ورسوله ومع حزبه فتامّل ما قلت وفي الحديث يتكلّم احدكم بالكلمة تهوى به في النار سبعين خريفاً ولمّا سمعت جنود الله وانصاره وحماة دينه والعرب والعجم قولك هذا حملتهم الغيرة الاسلاميّة والحمية الايمانيّة وتجدّد لهم نور الايمان واشرق عليهم شعاع الايقان فمن قائل من يقول سترون ما اصنع عند اللقاء ومن قائل ليعلمنّ الله الذين آمنوا وليعلمنّ المنافقين ومن قائل يقول انّما قصدي التشفّى في المسلمين اذ لوكان يطلب الصلاح لما صدرت منه هذه الافعال القبيحة الى غير ذلك فجزاهم الله عن الاسلام خيراً رضى الله عنهم وبارك فيهم فلله درّهم من رجال وفرسان وابطال وشجعان فلو لم يكن منهم الّا ما غيّر قلوبهم على الدين لكان كافياً في صحّة ايمانهم وعظيم ايقانهم فقد بلغ نور غضبهم في الله سبحانه ساق العرش والحبّ في الله والبغض في الله من قواعد الايمان وقولك ايضاً متبرّياً من حول الله وقوّته فان لم تفعلوا فالسيف فهو كلام هديان يدلّ على قلّة حياء قائله فقط اسيفك هذا نبا وانت مع المسلمين اربعاً وعشرين معركة لم تثبت لك فيها راية ثمّ زال نبوه الان بالكفّار فهذه اضحوكة فتامّلها وامّا ما نسبتم لامام دار الهجرة فكفاك عجزاً ان تعيّن لنا نصّاً جليّاً نعتمد عليه فيما تحتجّ به وامّا ما نسبتم

للحنفية من اكل الميتة عند الضرورة واباحة الغصّة بخمر فهو ممّا نصّ عليه المالكية في مختصراتهم التى ألّفوها لصبيان فعدولك عن ذلك الى نصّ الحنفيّة امّا تصور وامّا الغاء لمذهب مالك رضى الله عنه وهو النجم الثاقب وامّا قولك انتم اهل بغى وعناد فلا نسلّم لك ذلك الّا لو اقمت بين اظهرنا وقاتلت معنا حتّى ترى انسلّمك ام لا فامّا اذا هربت عنّا وتركتنا فالحجّة عليك لا علينا على انّك في كتابك تفسق الكلّ بذلك وتكفّره وقد قال العلماء رضوان الله عليهم من يقول بتكفير العامّة فهو أَوْلى بالتكفير وذلك معزر لزعيم الفقهاء ورايس العلماء ابي الوليد بن رشد والقاضى ابي الفضل عياض رحمهما الله وكيف لا تنظر لقضايا تلمسان وتونس وغيرها من سائر البلدان كيف وقع لامرائهم المستنصرين بالكفّار على المسلمين هل حصلوا على شئ ممّا قصدوه او بلغوا شيأً ممّا املوه على انّ اكثر العلماء حكم بردّتهم ففاتتهم الدنيا والاخرة والعياذ بالله وقد افتخرت في كتابك بجموع الروم وقيامهم معك وعوّلت على بلوغ الملك بجيوشهم وانّى لك هذا مع قول الله تعالى اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً ويابى الله الّا ان يتمّ نوره ولو كره الكافرون وفي الحديث عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لن تغلب هذه الامّة ولو اجتمع عليها من الكفّار ما بين لامات الدنيا وعنه صلّى الله عليه وسلّم سيقاتل هذه الامّة الدجال وعنه عليه الصلاة والسلام انّه قال سالت ربي ثلاثاً فاعطاني اثنتين ومنعنى واحدة سالته الّا يهلككم بسنين كسنى يوسف فاعطانيها وسالته الّا يغلبهم عدوّهم الكافر فاعطانيها وسالته الّا يجعل باسهم بينهم فمنعنيها والكلّ عليك وايّاك نعنى وما ذكرته عن عمّك المنصور فاعلم انّه لمّا بلغه خبرك واستصارك بالكفّار عقد الراية المنصورة بالله في وسط جامع المنصور بعد ان ختم عليها اهل الله حملة القرءان ماية ختمة وصحيح البخاريّ وضجوا عند ذلك بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير والدعاء له وللاسلام بالنصر والتمكين والفتح الشامل الشامخ المبين فلو سمعت ذلك لعلمت وتحقّقت انّ

ابواب السماء قد انفتحت لذلك وقضى ما هنالك وبلغه كتابك الذي كان هذا جوابنا عنه وهو بوسط تامسنا معه من جنود الله وانصاره وحماة دينه ما يجعل الله فيه البركة ولولا انّ الشرع العزيز امر بتعظيم جيوش الاسلام وجنوده اهل الايمان والمباهاة بها والافتخار بكثرتها لما قرّرنا لكم امرها اذ لا اعتماد له ايّده الله عليها وكذلك هم لا اعتماد لهم وله الاّ على حول الله وقوّته ونصره وتاييده والناس على دين الملك وقد قاتلك في جيش المسلمين في بضع عشرين معركة ثمّ لم تنصر لك راية فايّ شوم ونحس حلاّ بديار الروم فان حلت بهم فالله لك ولهم بالمرصاد فارجع الى الله ايّها المسكين وتب الى الله فانّه يقبل التوبة عن عباده في كلّ وقت وحين ودع عنك كلام من لا ينهضك حاله ولا يدلّك على الله مقاله وهذه نصيحة ان قبلتها وموعظة ان وفقت اليها والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم وهونعم المولى ونعم النصير وهو حسبنا ونعم الوكيل والسلام

ذكر الخبر عن غزوة وادى المخازن وما

وقع فيها للمسلمين من النصر المبين

قال في المنتقى هذه الغزوة من الغزوات العظيمة والوقائع الشهيرة حضرها جمّ غفير من اولياء الله تعالى حتّى انّه اشبه شيء بغزوة بدر حدّثني شيخنا ابو راشد يعقوب اليدريّ عمّن يثق به انّ الرجل من حاضري ذلك المترك يستبق للنصرانيّ لينتهز به الفرصة فما يصله حتى يجده ميّتاً . وكان خروج النصارى في هذه الوقعة بجيوش حافلة وجموع عديدة يقال انّه زهاء ماية الف وخمسة وعشرون الف مقاتل وقصدوا هلاك المغرب وحصر المسلمين وادارة رحى الهوان على اهل الدين فعظم ذلك على الناس وامتلات قلوبهم رعباً وصدورهم

كرباً وبلغت القلوب الحناجر واشتعلت على اهل العقول نيران الهواجر الى ان اتاح الله لهم نصر دينه واعلاء كلمته وظهر من لطيف صنع الله تعالى ما لم يخطر لاحد ببال وسبب ذلك كلّه انّ محمّد بن عبد الله لمّا دخل طنجة قصد الطاغية واستصرخه على عمّه وطلب منه المعونة فشرط عليه الطاغية ان يكون للنصارى سائر السواحل وله هو ما وراء ذلك كلّه فقبل ذلك منه محمّد بن عبد الله والتزمه واسم هذه الطاغية بستيان البرتقاليّ ويقال برتقيس فخرجوا بجيوش وافرة وسلف بيان نهايته حسبما انهاه ابن القاضي والذي عند غيره انّهم كانوا نحواً من ستّين الف وقال في المنتقى وعدد الكفرة مايـة الف وخمسة وعشرون الفاً الخمس والعشرون بقيت في السفن والماية الف حضرت القتال اسر بعضهم وقتل الباقي . وكان مع محمّد بن عبد الله نحو الثلاثماية من اصحابه قال بعضهم وكان عدد الانفاض التي يجرّونها مايتين من الانفاض فشنّوا الغارات على اهل السواحل فاعلموا اهلها السلطان عبد المالك وكان بمرّاكش وشكوا له كلب العدوّ عليهم فكتب عبد المالك من مرّاكش الى الطاغية انّ سطوتك قد ظهرت في خروجك من ارضك وجوازك البحر الى العدوة فان ثبتت الى ان نقدم عليك فانت نصرانيّ حقيقيّ شجاع والّا فانت كلب ابن كلب فلمّا بلغه الكتاب غضب وشاور اصحابه هل نقعد هنا حتّى يلتحق بنا من خلّفنا من اصحابنا فقال لهم محمّد بن عبد الله الراي ان نتقدّم ونملك تطاون والقصر والعرايش ونجمع ما فيها من العدّة ونتقوّى بما فيها من الذخائر فاعجب ذلك الراى اهل الديوان ولم يعجبه هو وكتب عبد المالك الى اخيه احمد ان يخرج من فاس واحوازها بالجيوش ويتهيّا للقتال وكتب عبد المالك الى الطاغية انّي رحلت اليك ستة عشر مرحلة اما ترحل اليّ واحدة فرحل العدوّ من موضع يقال له تهدّارت ونزل على وادي المخازن بمقربة من قصر كتامة وكان من عبد المالك مكيدة ثمّ انّ الطاغية قطع بجيوشه وعبر جسر الوادي ونزل من هذه العدوة فامر عبد المالك بالقنطرة ان تهدم ووجّه لها كتيبة من الخيل فهدموها

وكان الوادي لا مشرع له ثمّ زحف عبد المالك الى العدوّ بجيوش المسلمين وخيل الله المسوّمة وانضاف له من المتطوّعة كلّ من رغب في الاجر وطمع في الشهادة واقبل الناس سراعاً من الافاق وابتدروا حضور هذا المشهد الجليل وكان ممّن حضر من الاعيان ابو المحاسن سيّدي يوسف الفاسيّ وغيره وسمعت انّ الشيخ الغوث سيّدي ابا العبّاس السبتيّ رحمه الله رئي فيها جهاراً على فرس اشهب وهو يحضّ الناس على التقدّم ولا يستنكر مثل هذا فانّ الشهداء احياء عند ربّهم فالتقت الفئتان وزحف بعضهم الى بعض وحمى الوطيس واسودّ الجوّ بنقع الحياد ودخان مدافع البارود واشتدّ القتال وكثر الضرب والطعن واستمرّ النزال فلمّا قامت الحرب على ساق والتفّت الساق بالساق توفّي عبد المالك عند الصدمة الاولى منه وكان مريضاً في محفّته وعند ما اضرمت نار القتال وكان من قضاء الله السابق ولطفه السابغ انّه لم يطلع على وفاته احد الاّ حاجبه ومولاه رضوان العلج فانّه كتم موته وصار يختلف الى الخباء ويقول انّ الامير يامر فلاناً ان يذهب الى موضع كذا وفلاناً ان يلزم الراية وفلاناً ان يتقدّم وفلاناً ان يتاخّر وهكذا وقال شارح الزهرة ولمّا مات عبد المالك لم يظهر الذي كان سايس المحفّة موته فصار يقدّم دوابّ المحفّة نحو العدوّ ويقول للجند الملك يامركم بالتقدّم الى الكفرة وعلم ايضاً بموته اخوه المنصور فكتمها ولم يزل كذلك والناس في المناضلة ومداناة القواضب واحتساء كؤوس الحمام الى ان هبّت على المسلمين ريح النصر وساعدهم الدهر وائمرت كليم رماحهم زهور الظفر فولّوا المشركون الادبار ودارت عليهم دائرة البوار وحكمت السيوف في رقابهم ففرّوا ولات حين فرار وقتل الطاغية البرتقاليّ غريقاً في الوادي وقصد النصارى القنطرة فلم يجدوا لها اثراً فكان ذلك من اكبر الاسباب في هلاكهم واعظم الحبايل في اقتصامهم ولم ينج من الروم الاّ عدد نذر وشرذمة قليلة وبحث في القتلى عن محمّد بن عبد الله فوجد غريقاً في وادي لكّس وذلك انّه لمّا راى الهزيمة القى بنفسه فيه ورام قطعه فغرق فيه فاستخرجه الغوّاصون

فسلخ جلده وحشى تبناً وطيف به في مرّاكش وغيرها وممّن وجد في القتلى ابو عبد الله محمّد بن عسكر صاحب دوحة الناشر فانّه هرب مع المسلوخ وكان من بطانته ودخل معه بلاد الروم فوجد ميّتاً بين قتلى النصارى صريعاً وتكلّم الناس في امره حتّى قيل انّه وجد على شماله مستدبراً للقبلة وفي ذلك يقول الفقيه العلّامة سيّدي محمّد ابن الامام الشهير سيّدي عبد الله الهبطيّ رحمه الله فى منظومته التى نظم فيها اصحاب ابيه معتذراً عن ابن عسكر المذكور ومشيراً الى توهين ما قيل فيه

ومنهم الشيخ الذي لا ينكر محمّد اخو الدهاء عسكر
فان يكن اتى بذنب ظاهر فقلبه من الشكوك طاهر
رايته في النوم ذا بشارة وهيئة حسنة وشارة

وكان التقاء الجمعين يوم الاثنين منسلخ جمادى الاولى عام ستّة وثمانين وتسعماية قال في المنتقى وكان قدر المقاتلة خمساً واربعين درجة او اثنتين وخمسين درجة على ما حدّثنى به بعض الموقّتين . وتوفّى عبد المالك في زوال اليوم المذكور وبايع الناس اخاه ابا العبّاس احمد المنصور كما سياتي ان شاء الله قال في درّة الحجال فانظر لحكمة الله الواحد القهّار اهلك الله ثلاثة ملوك في يوم واحد وهم ابو مروان وابن اخيه محمّد بن عبد الله والطاغية بستيان واقام واحد وهو ابو العبّاس المنصور ولمّا بلغت الهزيمة الى الطاغية الاعظم بعث الى المنصور بعد استبداده بالملك ورجوعه لفاس كما سياتي يلتمس منه الفداء لمن بقى في يده من الاسارى ففداهم وجمع في ذلك اموالاً سنيّة وذكر بعضهم انّ الاسارى الذين وقع فداؤهم لمّا توجّهوا الى بلادهم ووصلوا لملكهم قال لهم الطاغية لِمَ لَمْ تاخذوا القصر والعرايش وتطاون قبل ان يصل ملكهم اليكم فقالوا له امتنع من ذلك الامير الذي امّرته علينا فامر بهم فاحرقوا جميعاً . غريبة وفيها

مضحكة ذكر بعضهم انّ النصارى دمّرهم الله لمّا وقعت عليهم الكائنة المذكورة وفنى من فنى منهم راى اساقفتهم قلّة الروم وخلاء البلاد اباحوا للعامّة فاحشة الزنى ليكثر التناسل ويخلف ما هلك منهم وراوا ذلك من نصرة دينهم وتقويم ملّتهم اخزاهم الله ودمّرهم .

ذكر الخبر عن سبب وفاة ابى مروان عبد المالك

وبقيــة اخبــاره

قال ابن القاضى كان سبب وفاة عبد المــالك انّه سقى سمّاً وذلك انّ قائد الاتراك الذي كان معه واسمــه رضوان العلج بعث لبعض قوّاده ان يتلقّــاهم بكعك مسموم هديّة لعبد المالك وقت جوازهم عليه قصد بذلك قتله بعد اخذه به مدينة فاس ليثبت لهم الملك فيها فلم يكمل الله مرادهم لما شــاهدوا من عظيم جيش المغرب وكثرته فكان ذلك سبب موته . ولمّــا توفّى حمــل الى مرّاكش فقبر بها وكانت مدّة خلافته اربعة اعوام ومن حجّابه القائد رضوان العلج ومن كتّابه محمّد بن عيسى ومحمّد بن عمر الشاويّ وقضاته قضاة ولد اخيه وكان يتزيّا بزيّ الاتراك ويجري مجراهم في كثير من شئونه وكان يتهم بالميــل للاحداث وربّمــا كان يظهر ذلك كما سلف ويلقّب من الالقــاب السلطانيّــة بالمعتصم وكان اخوه ابو العبّاس احمد المنصور خليفة له على فاس وما والاهــا وكانت له فيه محبّة تامّة وكان يظهر انّه وليّ عهده ويرشحه لذلك كثيراً وقد وقفت على رسالة كتب بهــا اليه ابو مروان تدلّ على ذلك ونصّها بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله المعتصم بالله المجــاهد في سبيل الله امير المؤمنين عبد المالك ابن امير المؤمنين ابي عبد الله محمّد الشيخ الشريف الحسنيّ ايّد الله امره واعزّ نصره واسعد زمانه المبــارك وعصره وابقى بمنّــه فخره من املائه ايّده الله وادام ذكره الى اخينا الاعزّ الاحظى باب احمد حفظه الله سلام

عليكم ورحمة الله وبركاته امّـا بعد فاعلم انّي لا احبّ احداً بعد نفسي محبّتي لك ورغبتي في انتقال هذا الامر من بعدي الّا اليك لا لغيرك غير انّي نعتاد منك التراخي في الامور حتّى انّك لا تبـالي بعظيم الامر ولا تعتبره الى ان يتطرّق الىّ ما لا يتلافى جبره من الامور التى تكاد لولا لطف الله تذهب بهذا الملك وتهدم اركانه ويبلغ العدوّ مناه ورضاه ومراده من ذلك في هذا التراخي اهمالك امر الجند الذي بالعرايش واغفـالك له مع ما يترادف عليك في كلّ ساعة من تلقائه من استدعاء ما دعت الحاجة اليه من المئونة والبارود والرصاص الذي لا يستقيم لهم امر في مقاومة العدوّ دون ذلك وجعلت تقابل خطابهم بالاهمال وعدم المبالاة الى الان ساعـة يرد عليك كتابنا هذا قبل وضعه من يدك ابعث لهم مئونة عشرة ايّام بينما نصل ان شاء الله فيقع التدبير فيما يحتاجونه زايداً على ذلك مع ما عندكم هنـالك من البارود والرصاص من غير عطلة ولا تراخٍ ولا نقبل منك عذراً في هذه المسالة التى لاتحتـاج للاهمال ولابدّ ولابدّ وقد بلغنا انّ صاحب النصارى بقرب اصيلا بخمس عشرة ماية من النصارى وتمنّيت ان لو حركتك الهمّة لاقتحـامه في مكانه بجيش يكسيه اردية الصغار ويرجع سـاعة رويته الى عادته من الذلّ والفرار فانتبـه من الغفلة وافتح عين الانتباه واليقظة فانّ الساعة لا تقتضى الّا الحزم والتشمير على ساعد الجد والاجتهاد والعزم والسلام

ذكر الخبر عن اولية السلطـان ابى العبّـاس

مولانا احمد المنصور الذهبىّ رحمه الله

صفته كان رحمه الله طويل القامة ممتلئ الخدّين واسع المنكبين تعلوه صفرة رقيقة ادعج اسود الشعر اكحل العينين ضيّق الفلج برّاق الثنـايا جميل الوجه

مليح الصورة ظريف الترع لطيف الشمايل حسن الشكل كانت ولادته رحمه الله بفاس سنة ستّ وخمسين وتسعماية وامّه الحرّة مسعودة بنت الشيخ الاجلّ ابي العبّاس احمد بن عبد الله الوزكيتيّ الورزراتيّ وكانت من الصالحات حريصة على انشاء المفاخر راغبة في فعل الخير قال في المنتقى وهى التى انشات المسجد الجامع بحومة باب دكّالة داخل مدينة مرّاكش وحبّست عليه اوقافاً عظيمة وكان ذلك عام خمسة وستّين وتسعماية وهى التى بنت جسر وادي امّ الربيع وغير ذلك وتوفّيت رحمة الله عليها سحر يوم الثلاثاء السادس والعشرين من صفر في متمّ الالف ومن المستفيض انّها رئيت بعد موتها فسئلت ما فعل الله بها فقالت غفر لي بسبب انّي كنت ذات يوم جالسة لقضاء الحاجة فسمعت الموذّن قد شرع في الاذان فردّدت علىّ ثيابي اعظاماً لذكر الله تعالى حتّى فرغ الموذّن من اذانه فشكر الله لي ذلك فغفر لي ونشا المنصور رحمه الله في عفاف وصيانة وكانت مخايل الخلافة لايحة عليه من لدن عقدت عليه التمايم وكان والده المهديّ ينبّه على أنّه واسطة عقد اولاده قال في مناهل الصفاء حدّثنى الشيخ المسنّ القائد ابو محمّد مومن بن غازي العمريّ انّ المنصور اقبل يوماً في حياة ابيه وهو صبيّ والمجلس غاصّ بالاكابر فاندفع يخترق الصفوف قال فصاح بي المهديّ اذّاك وانا اصغر القوم فقال يا مومن ارفعه فسينفعك وينفع عقبك فابتدرت حمله وكان كذلك فانّ المنصور لمّا افضت اليه الخلافة كان القائد مومن بن غازي هذا عنده بالحضرة الرفيعة والمنزلة العليّة قال ابو فارس ولمّا اخذ البيعة لولده السلطان الغالب بالله كما تقدّم استقدمه من فاس واوصاه بالمنصور جدّاً وقال له انّ الفائدة فيه او كما قال وكان المنصور يحدّث انّه راى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في النوم وانواره تشرق قال فوقع في نفسى ان اساله عن نصيبى من الخلافة فكاشفنى عليه الصلاة والسلام بما في خاطري واجابنى بما حقّق لي مقالتها ثمّ اشار لي باصابعه الثلاثة الشريفة ضامّاً الابهام منها الى السبّابة والوسطى وقال امير المؤمنين وحدّث الفقيه سفير الخلفاء العالم الوليّ ابو عبد الله محمّد بن محمّد بن علىّ

الدرعيّ الجزوليّ انّه اجتمع ببعض اهل المكاشفة بمصر فساله عن السلطان محمّد الشيخ المهديّ وعن اولاده فسمّيتُهم له واقتصرتُ على الكبار منهم ولم اذكر المنصور لانّه كان اصغرهم سنّاً اذّاك فقال لي بقي منهم من لم تذكر فقلت احمد فقال لي ذلك واسطة عقدهم ووجه صفقتهم فكان الامر كذلك وقال الامام ابو زيد عبد الرحمن بن محمّد التمارتيّ في كتابه الفوائد الجمّة باسناد علوم الامّة اخبرنا الفقية ابو العبّاس احمد بن عبد الله الدغوغيّ صاحب الحسبة بتارودانت انّه راى في منامه كانّه في حلقة يسرد فيها صحيح البخاريّ بمحلّ من دار الخلافة بها وابو العبّاس المنصور يومئذ بها قبل ولايته قال فرايت في طرّة الكتاب وريّ الزند فكنت اتامّل معناه فالتفتّ فاذا انا برجل في ناحية انعزل فيها على طنفسة فوقع في نفسي ان اساله فاتيته بالكتاب وقلت له يا سيّدي ما معنى هذه الكلمة التي في طرّة هذا الكتاب فقال لي قل لمولاك احمد انا الذي اوريت زندك ما دمت على الحقّ فان عدلت عنه فانا بريء منك فقلت له ومن انت يا سيّدي فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثمّ استيقظت فلم يمض الّا قليل حتّى ولي الخلافة وحمدت سيرته قال ابو زيد وناهيك بزند اوراه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهذا ممّا يدلّ على انّ ولاية الاسلام لا تنعقد الّا بامر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقد اشتهرت المراءي بذلك. ويقرب من هذا ما ذكره صاحب كتاب ابتهاج القلوب بذكر مناقب سيّدي عبد الرحمن المجذوب انّ الولىّ الصالح سيّدي كدار المالكى راى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليلاً فشكى اليه اولاد مطاع لما راى ما هم عليه من الفساد في الارض فقال له النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ياتيهم احمد فكان الامر كذلك اتاهم بالقرب السلطان احمد المنصور فاخذهم وفلّ جمعهم كما سياتي ان شاء الله وذكر في المنتقى قال مرض المنصور ذات مرّة في صغره مرضاً شديداً حتّى ايس منه فرات امّه شخصاً في النوم وهو يقول لها زوّريه سيّدي الدراس بن اسماعيل نفع الله به فانّما اصابته عين فزوّرته اياه فعوفى واخباره من هذا النمط يطول تتبّعها وجمعها

ذكر الخبر عن دولة المنصور

واوّل امرها

قد ذكرنا كيفيّة مبايعته قبل وانّها كانت عقب وقعة وادي المخازن في يوم الاثنين منسلخ جمادي الاولى عام ستّة وثمانين وتسعماية واجتمع عليها اهل الحلّ والعقد ممّن هنالك من الاعيان ثمّ لمّا اقبل المنصور من تلك الغزوة ودخل مدينة فاس العليا يوم الخميس عاشر جمادي الاخيرة من السنة المذكورة جدّدت له البيعة بفاس ووافق عليها من لم يحضرها في حومة الوغا من النـاس ثمّ بعث لمرّاكش وغيرهـا من حواضر المغرب وباديه فاذعن الكلّ للطاعة وسارعوا للدخول فيما دخلت فيه الجماعة ولمّا تمّت للمنصور البيعة بوادي المخازن كان اوّل ما بدئ به انّ الجيش طلبوا منه ارزاقهم واستنجزوا منه اعطياتهم حسبما هي عادة من قبله معهم فطالبهم هو بخمس الغنيمة لانّهم جعلوها نهبة ولم يقتسموها على الوجه الشرعيّ فصعب اخراجهـا منهم لعدم التعيين وجرءة النـاس على الغلول فسلّم لهم فيها وسمحوا في رواتبهم واعطياتهم وكان ذلك صلاحاً وقطعاً للكلام فيما بينهم والامر لله سبحانه

ذكر الخبر عن بعث المنصور للافاق

يخبرهم بهذا الفتح المبين

قال الفشتاليّ لمّـا وقعت غزوة وادي المخازن وكبّت الله فيها الكفر واهله ونصر الدين واستوثق الامر للمنصور وتمّت له البيعـة بفـاس كتب المنصور

لصاحب القسطنطنية العظمى ولسائر ممالك الاسلام المجاورين للمغرب يعرفهم بما انعم الله به عليه من اظهار الدين واهلاك عبدة الصليب واستيصال شوكة الروم وردّ كيدهم في نحورهم فوفدت عليه الارسال من سائر الاقطار مهنّئين له على ما فتح الله له وعلى يديه وكان اوّل من وفد عليه رسول صاحب الجزائر ثمّ تلته ارسال طاغية برتقال اريك القائم بامر الروم بعد هلاك ابن اخيه بستيان بوادي المخازن فجاء بهديّة عظيمة وضعوها يوم دخلوا لفاس على العجلات والكراريط فعجب الناس منها عجباً بليغاً وكان ممّا فيها ثلاثماية الف دقات من ريال الفضّة واماّ الظرف والحوائج النفيسة فامر لا يحصى ثمّ ورد ارسال صاحب قشتالة بهديّة عظيمة منها اليواقيت الكبار التى انتزعها الطاغية من تاج ابائه وربعية مملوة من الدرّ الفاخر وغير ذلك وتكلّم الناس فيما بين هديّة برتقال وهديّة صاحب قشتالة ايّهما اعظم ولم يعرف اهل العقول التفاوت بين الهديّتين ثمّ قدمت ارسال السلطان خاقان العثمانيّ ومعهم هديّة وهى سيف محلّى لم ير قط مثله مضاء واصفى متناً ثمّ قدمت ارسال طاغية الافرنج ويقال لهم اليوم افرنصيص وبها يعرفون اليوم ومعهم هديّة عظيمة ولم تزل الوفود مترادفة ببابه والارسال تصبح وتمسى على اعتابه الى ان لم يبق احد ممّن تتشوّق النفوس لمبعثه وحينئذ اطمانت نفس المنصور وقرّت عينه بتمهيد الامر له وفي جمادي الاولى عام سبعة وثمانين وتسعماية مرض المنصور مرضاً مخوّفاً وطال به حتّى كادت الامور ان تختلّ ثمّ تداركه الله على يد الحكيم الماهر ابي عبد الله محمّد الطبيب ولمّا استقلّ من مرضه احسن للطبيب المذكور ونثرت عليه من الخلع يوم خروجه ما لا يحصى وكان يوم خروجه يوماً مشهوداً وفي ذلك يقول الفقيه اللغوىّ الاديب ابو عبد الله محمّد بن علّى الهوزالّي المعروف بالنابغة

تردّى اذى من سقمك البرّ والبحر وضجّت لشكوى جسمك الشمس والبدر
وبات الهدى خوفاً عليك مسهرا واصبح مذعور الفؤاد الندى الغمر

فلمّا اعاد الله صحّتك التي افاق بها من غمّة البدو والحضر
تراءت لنا الدنيا بزينة حسنها وعاد الى ايّامها ذلك البشر
وصار بك الاسلام في كلّ بلدة يهنّا ويدعو ان يطول لك العمر
وصحّت لنا الامال بعد اغتلالها وعاد الى الايناع اغصانها الخضر
ولا غَرْوَ إنْ صامت على سمط الندا اذا أغبرّ وجه الارض واحتبس القطر
بسيب ابي العبّاس انصت عجافها قديماً فخافت ان يعاودها الضر
لئن جدلت بيض المعالى فقد غدت نشيء الكمات البيض واللون اسمر
بقيت لهذا الدين تحمى دماره ويحميك ربّ العرش ما بقى الدهر

ذكر الخبر عن اخذه البيعة لولده وولّى عهده محمّد الشيخ المامون وسبب ذلك

قال الفشتالي لمّا ابلّ المنصور من مرضه المذكور وعاد الى حاله من الصحّة اجمع راى اعيان الدولة واتّفقت كلمة كبرائها على ان يطلبوا منه تعيين من يلى الامر بعده ويكون ولّى عهده وكان المنصور مهاباً فلم يقدر احد على مراجعته في ذلك فاتّفقوا على ان يكون البادي لذلك القائد مؤمن بن غازي الغمرىّ لما له من الادلال على المنصور بطول الخدمة وسالف التربية فقال له القائد المذكور يا مولانا قد حفظ الله الاسلام بابلالك من هذا المرض وحفظ الدين ببقائك عليه وقد بقى الناس في ايّام سقمك في حيرة عظيمة ودخلهم من الدهش ما لا يخفى عليك فلو عيّنت لنا من ابنائك القساورة من تجتمع كلمة الاسلام عليه ويشار بالخلافة اليه لكان اولى واليق بسياسة الملك وانّ ابنك الابرّ ابا عبد الله مولانا محمّداً المامون حقيق بذلك وجدير بسلوك تلك المسالك لما فيه من خلال الخير وخصال السيادة زيادة على ما هو عليه من التيقّظ في اموره

والحزم في شئونه وقد ظهرت للناس محاسن سيرته فاستحسن المنصور ذلك واعجبه ما اشار به عليه وقال له سوف استخير الله في ذلك فان كان من عند الله يمضيه فلبث المنصور ايّاماً يستخير ربّه في ذلك وشاور من يعلم اهليّته للمشورة من اهل العلم والصلاح فلمّا انقضت ايّام الاستخارة واتّضحت وجهة الاستشارة وتواطات العقدة على حسن تلك الاشارة جمع المنصور اعيان حاضرة مرّاكش واعيان مدينة فاس وغيرهم من اشياخ القبايل ووجوه الناس من البوادى والحواضر واوصى بالعهد لولده ابي عبد الله محمّد الشيخ المامون المذكور وذلك في يوم الاثنين لليلتين خلتا من شعبان وذلك عام سبعة وثمانين وتسعماية وكان المامون اذّاك خليفة ابيه على فاس ولم يحضر بيعته فبعث له المنصور بعد ذلك ليقدم من فاس ويبايعه بحضرته ولم يقنعه ما اخذ له من البيعة وهو غائب ولمّا بعث له للمجئ خرج المنصور خارج مرّاكش بعساكره ونزل بتانسيفت في الثاني عشر من صفر عام تسعة وثمانين وتسعماية ولم يزل بعسكره ذلك متلوّماً منتظراً لقدوم ولده المامون الى ان قدم في غرّة جمادى الثانية من العام المذكور فكان يوم ملاقاتهما من عجايب الزمان ولمّا اصطفّ جيش المامون وجيش المنصور ترجّل المامون عن فرسه واقبل حافى القدم فعفر وجهه بين يدى والده ثمّ قبّل رجله والمنصور على فرسه بين الصفّين فدعا له بخير واظهر الفرح بقدومه وكان المامون قد عبّا جيشه تعبية لم ير مثلها ورتّبهم ترتيباً حسناً في لباسهم وسائر امورهم فسرّ المنصور بذلك وبعد ايّام من بلوغه امر به فاجلس في سرادقه الاعظم الذى لم يكن للملوك قبله مثله كما سياتي وامر اهل الحلّ والعقد فازدحموا على تقبيل يده واقتضيت منهم الايمان بمحضره وقام الشعراء فافصحوا عن وصف الحال وغمر المنصور الناس بالعطاء وكان ذلك يوماً مشهوداً وبعد ايّام من ذلك امر المنصور بالمامون ان يرجع لحضرة فاس فرجع ودخل المنصور لحضرته السعيدة مرّاكش حرّسها الله تعالى

ذكر الخبر عن مخالفة الامير داود بن عبد المومن

وشقّه العصا عن عمّه ابي العبّاس المنصور وما وقع في ذلك

قال الفشتاليّ لمّا وقعت البيعة للمامون وتكامل امرها ثار الرايس الاجلّ ابو سليمان داود بن عبد المومن ابن الامام المهديّ وهو ابن اخي المنصور وفرّ الى جبل سكساوة وشقّ العصا على عمّه ودعا لنفسه فانثالت عليه شرذمة من البربر وغيرهم ونجم امره وكثرت في اذان الرعيّة جعجعته فبعث له المنصور قائده الزعيم ابا عبد الله محمّد بن ابراهيم بن القاسم بن بجة فناوشه القتال بجبل سكساوة فهزمه فهرب الى جبل هوزالة فتحزّبوا عليه وقويت بهم شوكته وبقي يشنّ بهم الغارات على اهل درعة الى ان ضاقوا به ذرعاً فشكوا امره ايضاً للمنصور فبعث له قائده المذكور فلم يزل في مقاتلته الى ان شرّده من هوزالة ففرّ منها الى الصحاري واستقرّ به الرحل في عرب الوداية من عرب الجنوب فلم يزل عندهم الى ان هلك عندهم عام ثمانية وتسعين وتسعمائة وكفى المنصور امره والامر بيد الله سبحانه

ذكر الخبر عمّا وقع للمنصور مع السلطان مراد العثمانيّ

وما السبب في ذلك

قد ذكرنا قبل انّ المنصور وردت عليه الارسال بالتهاني من ملوك الاقاليم وانّ ممّن وفد على ابوابه ارسال الملك العثمانيّ فقدموا عليه بهديّة سنيّة وتشاغل المنصور عنهم وتركهم بحضرته مهملين وتاخّر عن جواب خاقان ملك القسطنطنيّة

العظمى السلطان مراد ابن السلطان سليم التركمانيّ فغاظه ذلك ولم يزل الرايس على علوج وزير البحر يسعى بالمنصور عنده ويذكره ما وقع من ابيه من القدح في امارة الاتراك والطعن فيهم ويهين عليه امره الى ان اذن له في منازلته بالمغرب وياخذ عليه باقاته الى ان يستاصل امر المنصور ويخمد جمرته فاخذ الوزير في التهيئة لذلك فبلغ الخبر للمنصور فارتحل لفاس وشحن الثغور وملا المراسي وكان على اهبة وكمال استعداد وبعث ارساله الى السلطان المذكور بهديّة عظيمة وكان من ارساله القائد الانجب احمد بن ودّة العمريّ والكاتب الشهير ابو العبّاس احمد بن عليّ الهوزاليّ فركبوا في البحر من ثغر تطاون فبينما هم على تيح البحر في اثناء الطريق لقيهم وزير خاقان علوج المذكور وهو قاصد للمغرب بنيّة مصادمة المنصور فلمّا راهم سقط ما بيده وايقن بخيبة مسعاه ففاوضهما فيما قصداه وايسهما من تدارك الامر وقال لهما انّ الخرق قد اتّسع على الراقع ولو كان لصاحبكم غرض في المسالمة ما بقي اصحابنا بابوابه كالكلاب والبادي اظلم فلم يزل علوج بالقائد ابن ودّة الى ان ردّه معه وترك الهوزاليّ يبلغ الرسالة ظنًّا منه انّه صغير السنّ لا يحسن مخاطبة خاقان وابن ودّة الذي عنده مظنّة التدبير وكماله ومساجلة الملوك ردّه معه فلمّا بلغ الهوزاليّ الى خاقان اظهر من فراسته ولطافته في مخاطبته ما تحيّر منه خاقان واعتذر له عن تاخير المنصور عن الجواب بما لا يعود بوهن على مرسله ولا يفيد مغالبة بمخاطبه فقبل خاقان الاعتذار وقبل الهديّة بقبول حسن وكتب مع الهوزاليّ لوزيره علوج بالرجوع عن منازلة المنصور فرجع به الهوزاليّ يطير فرحاً ولم يُغب عن علوج الّا قدر الشهر فقرع علوج سنّ الندم واسف على ما فرط منه وبعث خاقان ارساله مع الهوزاليّ الى المنصور يلومه على التراخي في امور الملوك فلمّا وردت عليه الارسال احسن نزولهم وتلقّاهم بالترحيب وردّهم مكرمين وبعث معهم الفقيه الامام قاضي الجماعة ابا القاسم بن عليّ الشاطبيّ والقائد الانجب عبد الرحمن بن منصور الشياظميّ المريديّ فلمّا وردا على خاقان فرح بهما كلّ الفرح وصنع

الشياظميّ كلاماً بليغاً اعرب فيه عن فضل الدولتين وقرّر فيه حقّ اهل البيت واطرا المنصور غاية الاطراء وحضّ على اتحاد كلمة الاسلام وقرا ذلك على خاقان يوم السلام عليه ففرح بذلك خاقان واهتزّ لسماعه ثمّ بعد ايّام بعثهم خاقان واحسن اليهم كلّ الاحسان ولمّا تكامل ذلك الغرض وصحّ جسم الملك من ذلك المرض ورجعت الارسال في احسن الا حوال رجع المنصور الى مرّاكش وفي خروجه من فاس خرج اعيان فاس ومشيخة العلم بها وقرئ البخاريّ بين يديه على عادة الخلفاء رضى الله عنهم وكان ذلك عام تسعة وثمانين وتسعماية

ذكر الخبر عن فتحه لبلاد توات وتيكرارين

وما وقع في ذلك

لمّا استقرّ المنصور بمرّاكش مرجعه من فاس وامن مقاتلة الترك طمحت نفسه الى التغلّب على بلاد توات وتيكرارين وما انضاف اليهما من القرى والمداشر اذكان اهلهما قد انفكّت عنهم ايدي الملك منذ زمان ولم يستول عليهم سلطان قاهر فسنح للمنصور ان يجمع بهم الكلمة ويردّهم الى امر الله فبعث اليهما قائده احمد بن بركة وقائده احمد بن حدّاد العمريّ المعقلّي في جيش عرمرم بلغوهما عن سبعين مرحلة من مرّاكش وكانوا قد تلوّموا الى اهلها باعذار والدعاء للطاعة فامتنعوا من الاذعان واستزلّهم الشيطان فنازلوهم وقامت الحرب بينهم على ساق وطالت المعركة بينهم ايّاماً فمكّن الله منهم وحقّ عليهم القول فاصبحوا كامس الذاهب وانتهى الفتح للمنصور ففرح بذلك غاية وقال في ذلك الشعراء قوافي وكان ذلك كلّه سنة تسع وثمانين وتسعماية ولله عاقبة الامور

ذكر الخبر عن فتح المنصور لبلاد السودان

وكيفيّة ذلك وسببه

لمّا استولى المنصور على بلاد توات وتيكرارير واعمالهما تاقت همّته لبلاد السودان لكون تلك البلاد مجاورة لبلاد السودان ولمّا اجمع امره على ذلك راى ان يبدا اوّلاً بمراسلة ملوك السودان ويدعوهم الى الطاعة فان اذعنوا كان ذلك هو المطلوب وكفى الله المؤمنين القتال وان امتنعوا يحكم الله بينه وبينهم فكتب الى سلطانهم سكية في شان معدن الملاحة الكائن بتغازى ومنه يجلب لسائر بلاد السودان ويقول له انّ على كلّ حمل مثقالاً من الذهب عوناً لجيوش الاسلام فلمّا بلغت رسالته لسكية اظهر الامتناع من ذلك وابى من مساعفته وكان المنصور لم يكاتبه في ذلك حتّى استفتى علماء ايالته واشياخ الفتوى بها فافتوه بما هو المنصوص للعلماء رضوان الله عليهم من انّ النظر في المعادن مطلقاً انّما هو الامام لا لغيره وانّه ليس لاحد ان يتصرّف في ذلك الّا عن اذن السلطان او نائبه وكانت الرسالة المتوجّهة من انشاء الامام العلّامة الاشهر مفتى الحضرة المرّاكشيّة ابي مالك عبد الواحد بن احمد الشريف السجلماسيّ لانّ كاتب الانشاء ابا فارس عبد العزيز بن محمّد بن ابراهيم الفشتاليّ كان مريضاً في الوقت ولمّا فرغ من انشائها بقى عليه الصدر فلم يدر كيف يقول في مخاطبة سكية ولا كيف يمدحه وهل يتوغّل في المدح او يتوسّط فكتب ابو مالك حين تحيّر في ذلك للمنصور بما نصّه أيّدكم الله ونصر اعلامكم انّ مخاطبة هذا الرجل الذي هو في مرتبة مماليك الحضرة المولويّة امر تلعثم فيه لساني ووقف عن خوض لجّته بناني لانّ النساي عن هذه المحجّة قد مدّ بيني وبينها حجاباً واغلق في وجهي باباً فلا آمن ان اقتحم من الوقوع في

تفريط او افراط وخير الامور لو علمتها الاوسط لكن لاسبيل الى معرفته الّا بعد علم الطرفين والعبد محجوب عن ذلك دون مين فتركت ايّدكم الله الصدر لمن هو به منّى اقعد وتحاميت عقده لمن هو له اعقد ابي فارس عبد العزيز الذي افاضت عليه ابوابكم واضاءت له سبل هذا الخبر اقاركم والّا قرعت هواتف لسان الحال سمعى بقوله

يا باري القوس بريّاً ليس يحسنه لا تظلم القوس اعط القوس باريها

والله وليّ التوفيق

ذكر الخبر عن ال سكية ملوك السودان واوّليّتهم

قال الامام التكروريّ في كتابه نصيحة اهل السودان آل سكية اصلهم من صنهاجة وملكوا كثيراً من بلاد السودان واوّل ملوكهم الحاجّ محمّد سكية بضمّ السين وسكون القاف بعدها ياء مفتوحة ثمّ تاء وكان الحاجّ محمّد المذكور رحل في اواخر المائة التاسعة الى مصر والحجاز بقصد حجّ بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيّه عليه الصلاة والسلام فلقى بمصر الخليفة العبّاسيّ فطلب منه ان ياذن له في امارة السودان وان يكون خليفة له هنالك ففوّض له الخليفة العبّاسيّ النظر في امور تلك الاقاليم وجعله نائباً عنه على من وراءه من المسلمين فآض الحاجّ الى بلده وقد بنى رياسته على القواعد الشرعيّة وجرى على منهاج اهل السنّة ولقى بمصر الامام شيخ الاسلام حافظ الحفّاظ جلال الدين السيوطيّ فاخذ عنه عقائده وتعلّم منه الحلال والحرام وسمع منه جملاً من اداب الشريعة

واحكامها وانتفع بوصاياه ومواعظه فرجع الى السودان فنصر السنّة واحيا طريق العدل وجرى على منهاج الخليفة العبّاسيّ في مقعده وملبسه وسائر اموره ومال للسيرة العربيّة وعدل عن سيرة العجم فصلحت الاحوال وبرئ جسد الرشاد هنالك من الداء العضال وكان الحاجّ محمّد المذكور سهل الحجاب رقيق القلب خافض الجناح شديد التعظيم لائمّة الدين محبّاً للعلماء مكرماً لهم غاية الاكرام يفسح لهم في المجلس ويوسع عليهم في العطاء ولم يكن في ايالته كلّها بوس ولا باس بل كانت رعيته في خصب عيش وامن سرب وفرض عليهم شيأً خفيفاً من المغارم وظّفه عليهم وزعم انّه ما فعل ذلك حتّى استشار فيه الامام السيوطيّ شيخه المذكور ولم يزل على سيرته الموصوفة الى ان اخترمته المنيّة فقام بالامر بعده ولده داود فاحسن السيرة ما شاء وتبع طريقة ابيه الى ان مضى لسبيله ولحق بربّه فقام بالامر بعده ولده اسحاق فعدل عن بعض سيرة ابيه وجدّه ولم يكن فى اموره بالذميم وعليه انقرض ملك آل سكية وكان تحت طاعتهم من بلاد السودان مسيرة ستّة اشهر والملك لله وحده وتصاريف الامور سبحانه اليه

ذكر الخبر عن مشاورة السلطان المنصور اصحابه

في غزو اسحاق سكية واقتحام بلاد السودان عليه

قال الفشتاليّ لمّا رجعت ارسال المنصور اليه من عند اسحاق سكية واعلموه بمقال سكية وامتناعه واحتجاجه بانّه امير ناحيته وانّه لا تجب عليه طاعته شاور المنصور اصحابه وجمع اعيان دولته والتقى اهل الراي والمشورة فاجتمعوا وكان يوم اجتماعهم يوماً مشهوداً وقال لهم المنصور انّي عزمت على منازلة امير كاغوا وصاحب السودان وبعث الجيوش اليهم لتجتمع كلمة الاسلام وتتّفق ولانّ

بلاد السودان وافرة الخراج كثيرة المال يتقوّى بها جيش المسلمين ويشتدّ بها ساعد كتيبة المومنين مع انّ صاحب امرهم والمتولّي عليهم اليوم ملكهم معزول عن الامارة شرعاً اذ ليس بقرشيّ ولا اجتمعت فيه شرائط السلطنة العظمى فلمّا نثل المنصور ما في كنانته وابدى ما في وطائه وفرغ ما في عبيته من المرارة سكت الحاضرون ولم يراجعوا بشيء فقال لهم اسكتّم انصاتاً للراي ام ظهر لكم خلاف ما ظهر لي فاجابوا كلّهم بلسان واحد وراي متّفق انّ ذلك راي عن الصواب بعيد وانّه بمهانة عن الاراء السديدة ولا يخطر ببال السرقة فكيف بالملوك فقال وما بيان ذلك فقالوا انّ بيننا وبين السودان مهامة فيح يقصر عنه الخطا وتحير فيها القطا وليس فيها ماء ولا كلا فلا يتاتّى السفر فيها لاعتساف طرقها مع كونها مخوفة مملوة الجوانب ذعراً وايضاً فانّ دولة المرابطين مع ضخامتها ودولة الموحّدين على عظمتها ودولة المرينيّين على قوّتها لم تطمح همّة احد منهم لشيء من ذلك ولا تعرّضوا لما هنالك وما ذلك الّا لما راوا من صعوبة مسالكها وتعذّر مداركها وحسبنا ان تقتفي اثر تلك الدول فانّ المتاخّر لا يكون اعقل من الاوّل فلمّا قضى اولائك الاقوام كلامهم وابدوا اليه رايهم وافهامهم قال لهم المنصور ان كان هذا غاية ما استضعفتم به امري وقابلتم به راي فليس فيه حجّة ولا ما يخدش فيما عندي امّا قولكم بيننا وبينها صحارى مخوفة ومفاوز مهلكة من جدبها وعطشها نحن نرى التجّار على حالة ضعفهم وقلّة استعدادهم يشقّون تلك الطرق في كلّ وقت ويخوضون في احشائها مشاةً وركباناً ومثنى وفرادى وقط لم تنقطع ركاب التجّار منها وانا اقوى اهبة منهم وللجيش همّة وهيبة ليست للقوافل وامّا قولكم انّ من قبلنا من الدول الطنّانة لم تطمح ابصارهم لذلك فاعلموا انّ المرابطين صرّفوا عنايتهم لغزو الاندلس ومقاتلة الافرنج ومن بذلك الساحل من امم الاروام والموحّدون اقتفوا سبيلهم في ذلك وزادوا بحرب ابن غانية والمرينيّون كانت غالب وقائعهم مع بني عبد الواد بتلمسان ونحن اليوم قد انسدّت ابواب الاندلس باستيلاء العدوّ الكافر عليه

جملة وانقضت عنّا حروب تلمسان ونواحيها من الجزائر باستيلاء الترك عليها ثمّ انّ اهل تلك الدول لو ارادوا ما اردنا لصعب عليهم ادراكه لانّ جيوشهم فرسان راجلة ورماتهم ناشبة ولم يكن عندهم هذا البارود وعساكر النار المرهبة بالصواعق واهل السودان لم يكن عندهم الان الّا الرماح والسيوف وهى لا تقاوم هذه المدافع المستحدثة فمقاتلتهم سهلة وحربهم اسهل من كلّ شئ وايضاً فانّ بلاد السودان انفع من افريقية فالاشتغال بها اولى من منازلة الاتراك لانّه تعب كثير في نفع قليل فهذا جواب ما عرض لكم ولا يحملنّكم ترك الملوك الاوّل ذلك على استبعاد القريب واستصعاب السهل فانّه كم ترك الاوّل للاخر وقد يفتح على المتاخّر بما لم يفتح به على المتقدّم فلمّا فرغ المنصور من خطابه استحسن الحاضرون جوابه واستملحوا اشارته واستجادوا رايه وقالوا له طبقت المفصّل والهمت الصواب ولم يبق لاحد ما يقول وصدق من قال عقول الملوك ملوك العقول فانفصل الجمع على البعث للسودان ومناهضة اهله ومتابعة المنصور في رايه قلت وقع في كلام المنصور امران يحتاجان الى مزيد بيان الاوّل ما قاله انّ الملثّمين لم تكن لهم سلطنة على السودان والذي احفظه لابن خلدون وغيره انهم ملكوا غانة واستقضوا منها الامارات والجزية وغانة دار ملك السودان وهى مدينتان على ضفّتَى النيل الثاني ما قال انّ البارود حدث ولم يكن في تلك الدول الفارطة فالذي وقفت عليه في تاريخ حدوثه ما ذكره شيخ شيوخنا الامام الحافظ ابو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسىّ رحمه الله في شرحه لمنظومته فيما جرى به العمل بفاس قال كان حدوث البارود سنة ثمان وستّين وسبعماية حسبما ذكر بعضهم في تاليف له في الجهاد وانّه استخرجه حكيم كان يعمل الكيمياء ففرقع له فاعاده فاعجبه واستخرج منه هذا البارود والله اعلم . والله سبحانه وتعالى يفعل في ملكه ما يريد

ذكر الخبر عن بعث المنصور جيوشه

الى السودان

لمّا اتّفق راى المنصور مع اهـل الشورى من اعيـان دولته على البعث للسودان اختار من جملة جيشه وابطال جنده وانصاره ممّن يعلم بخدمته ويعرف كفايته فهيّـا جيشاً عظيماً وتخيّر من الابل كلّ بازل وكوماء ومن الخيل كلّ عتيق وجرداء وعقد لواء الجيش لمولاه الباشا جودر فخرج في زيّ عظيم وهيئة لم ير مثلها وكان خروجه من مرّاكش في السادس عشر من ذي الحجّة عام ثمانية وتسعين وتسعماية وكتب المنصور الى قاضى تينبكت وهو الامام العلامة ابو حفص عمر ابن الشيخ محمود بن عمراقيت الصنهاجىّ يامره بحضّ الناس على الدخول في الطاعة ولزوم حزب الجمـاعة ولم يزل جودر ينتقل من مرّاكش مرحلة فمرحلة الى ان بلغ عمائر تينبكت واحتلّ بعمالتها فالقى هناك اسحاقاً في جنوده وكان لمّا سمع اسحاق سكية بخروج الجيش وتوجّهها اليه حشر جنوده وبعث في المدائن حاشرين وجمع جموعاً عديدة ويقال انّه جمع ماية الف مقاتل واربعة الاف مقـاتل وكان ذا اهبة واستعداد قال الفشتـالىّ ولم يقنع بالجيوش التى جمع حتّى اضاف الى ذلك اشياخ السحرة واهل النفث في العقد وارباب العزائم والسيما ظنّاً منه نجح ذلك وهيهات

السيف اصدق انباء من الكتب ... في حدّه الجمع بين الجدّ واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف في ... متونهنّ جـلاء الـشكّ والريب

فلمّا التقت الفيئتـان نكص اسحـاق على عقبـه وانتثرت جموعه وفلّ غربه

والتحمت الحرب من لدن الضحى الى قرب العصر فطحنتهم رحى الحرب وصيّرتهم كاعجاز نخل خاوية ونجا اسحاق بنفسه في قليل من حاشيته وكان جيش اسحاق انّما سلاحهم الخرشان الصغار والرماح والسيوف ولم تكن عندهم هذه المدافع فلم تغن خرشانهم ورماحهم مع البارود شيأً ومن حينهم ولّوا الادبار وحقّ عليهم البوار وحكمت في رقابهم سيوف جودر وجيوشه حتّى كان اهل السودان ينادون نحن مسلمين نحن اخوانكم في الدين والسيوف عاملة فيهم وكان ذلك كلّه في السادس عشر من جمادى الاولى عام تسعة وتسعين وتسعماية ولمّا فرّ اسحاق تبعه جودر بعد ان استولى على تينبكت وسائر ما يواليها من المدائن والقرى وبعث جودر للمنصور يخبره بالفتح وبهديّة عظيمة فيها عشرة الاف مثقال ذهباً ومايتان من الرقيق وغير ذلك ولم يزل في مطالبة اسحاق الى ان قطع بحر النيل فقطعه جودر بجيوشه خلفه وتبعه الى ان حاصره في مدينة كاغوا وهى كانت دار ملك اسحاق ثمّ انّ اسحاقاً راسل جودر يطلب منه الصلح على ضريبة يبذلها له في كلّ سنة واموال طائلة يوديها على ان يتركه في دار ملكه فاعجب ذلك جودر وبعث للمنصور يستشيره في ذلك فانف من ذلك المنصور وامتنع كلّ الامتناع وكتب لجودر على ظهر رسالته بخطّ يده اتمدّونني بمال فما اتاني الله خير ممّا اتاكم بل انتم بهديّتكم تفرحون ارجع اليهم فلناتينّهم بجنود لاقبَل لهم ولنخرجنّهم منها اذلّة وهم صاغرون وكان جودر حين طال عليه الحصار بكاغوا وسئم من طول الاقامة وشكى اليه الجيش وخامة تلك البلاد واستيلاء الاسقام عليهم رحل عنها راجعاً الى تينبكت ريثما ياتيه جواب المنصور عن ذلك الصلح الذي طالبه به اسحاق فخنق المنصور عليه حين رجع القهقرا وانقلب الى وراء وارسل الباشا محموداً وعزّل به جودر عن امارة الجيش وابقاه تحت امره فلمّا وافى محمود بمنازلة اسحاق والتضييق عليه في كاغوا رجعوا الى مدينة كاغوا وكان اسحاق لمّا تخوّف من استيلائهم عليها امر في خلال ذلك بنقل الاقوات منها واخلائها فلمّا ضيقوا

عليه خرج هـارباً من كاغوا وظنّ انّهم لا يتبعونه فتجـاوز كاغوا الى مدينة كوكية وقطع النيل فقطعوا خلفه ولم يزالوا في اتباعه الى ان مـات وادبرت ايّامه وانصرم سماط ملكه فانتظمت المماليك السودانيّة في سلك طاعة المنصور مابين البحر المحيط من اقصى ارض المغرب الى بلاد كنو المتضـامّة لبلاد برنو فاذعن صاحب برنو وتنتهي مملكة برنو الى بلاد النوبة المتضامّة لصعيد مصر قال الفشتـاليّ فكلمة المنصور نافذة فيما بين بلاد النوبة والبحر المحيط من ناحية المغرب وهذا ملك ضخم وسلطان فخم لم يكن لمن قبله والله يؤتي ملكه من يشاء ولمّا فتح عليه مماليك البلاد السودانيّة حمل له من التبر ما يغير الحاسدين ويحيّر النـاظرين حتّى كان المنصور لا يعطى في الرواتب الاّ النضار الصـافي والدينـار الوافي وكانت ببابه كلّ يوم اربعة عشر مائة مطرقة تضرب الدينـار دون مـا هو معدّ لـغير ذلك من صوغ الافراط والحلى وشبه ذلك ولاجل ذلك لقّب بالذهبيّ لفيضان الذهب في زمانه ولمّا وافت المنصور وفود البشـائر بالفتح سرّ بذلك سروراً عظيماً وامر بالمفرحات وتزيين الاسواق غـدوة وعشية ثلاثة ايّام واتته الوفود من كلّ ناحية يهنونه على ما اتاه الله من النصر المكين والفتح المبين وقال الشعراء في ذلك وقام به في المحافل الخطباء وممّا قيل في ذلك ما انشده ابو فارس عبد العزيز بن محمّد الفشتاليّ فقال

جيش الصباح على الدجا متدفّق ... نبياض ذا لسواد ذلك ممحق
وكانّه رايات عسكـرك الـتى ... طلعت على السودان بيضاً تخفق
لاحـت وأفْقهـم ليـال كلّه ... كعمود صبـح في الدجا يتدفّق
نشرت لتطوى منه ليلاً دامسا ... انحى بسيفك ذى الفقار يمزّق
ارسلتهنّ جوائحاً وجوارحا ... في كلّ مخلبهـا غراب ينعـق
وسرَتْ فـكان دليلهنّ اليهـم ... مشحوذ عزمك والسنان الازرق
له من الليالى قد جلا احلاكها ... نور النبوة من جبينك يشرق

صعقت بهنّ رعود نارك صعقة رجّت لصيحتها العراق وجلق
سحقاً لاسحاق الشقي وحزبه فلقد غدا بالسيف وهُو مطوّق
رام النجاة وكيف ذاك وخلفه من جيش جودرك الغضنفر فيلق
جيش اواخره ببابك سيلة عرم واوّله بكاغوا محدق
لم يشعروا الّا واسداد الرضى ضربت عليهم من قتال وخندق
كتب الاله على عداتك انّهم قنص لسهمك غرّبوا او شرّقوا
ظلّت ملوك ساجلوك على العلا سفهاً وساوك في العلا لا يلحق
ان يشبهوك ولا شبيه يرى لكم في الخلق اين من اللجين الزيبق
بشّر ملوك الارض انّك فاتح بالمشرفيّ على الولا ما اغلق
ويعاصل لك ذو الفقار ففرّق ما جمّعوه وجامع ما فرّقوا
دامت طيور السعد وهُى غوادر بالمشتهى لك والمسرّة تنطق
ما دام ذكر علاك في صحف الثنا اصل الفخار وكلّ ذاك ملحق

قال ابن القاضي في شرح درّة السلوك كان فتح السودان المذكور سنة تسع وتسعين وتسعماية واليه اشرت بقولي من قصيدة

فتح مبين هو تاريخه فاعجبُ لفتح ما له من جناح

ولقد هدى الله تعالى وارشد صاحبنا ابا الحسن عليّ بن عبد الرحمن بن عمران السلاسيّ الى اخذ تاريخ الفتح المذكور بحساب النيم بعد اسقاط الفات الوصل وحرف التضعيف من قوله تعالى ولينصرنّ الله من ينصره انّ الله لقويّ عزيز الى قوله ولله عاقبة الامور وهو منزع لطيف وذكر لي انّ الكوشيّ المفسّر نصّ على انّ الاية من باب الاخبار بالمغيبات وكان محمود لمّا استوثق له الامر هناك بعث نصف جيشه مع هديّة للمنصور فيها من الذخاير ما لا يحصى وهى اثنتا

عشر مائة مملوك من الجواري والغلمان واربعون حملاً من التبر واربعة سروج من الذهب الخالص واحمالاً كثيرة من اليـاقوت وكوز من الغـالية وقطوط الغالية وغير ذلك من الاشياء النفيسة ذات الاثمان العالية ولم يزل محمود هنالك خليفة للمنصور وفي مقامه هنالك قبض على الامـام العلّامة الهمـام علم الاعلام ابي العبّاس احمد بن احمد بابا وعلى اهل بيته فحملوا مصفّدين فى الحديد لمرّاكش ومعهم حريمهم ونهبت اموالهم وذخائرهم وكتبهم قال في بذل النـاصحة سمعته يقول انا اقلّ عشيرتي كتباً نهبت لي ستّة عشر مـائة مجلّد وكان القبض عليهم اواخر المحرّم عام اثنين والف ووصلوا لمرّاكش في رمضـان من العام بعده واستقرّوا مع عيالهم في حكم الثقاف الى وقت انصراف المحنة عنهم فسرّحوا في يوم الاحد الحادي والعشرين من رمضـان عام اربعة والف ففرحت بذلك قلوب المؤمنين ولمّـا ادخل ابو العبّـاس بعد التسريح من السجن على المنصور وجده يكلّم الناس من وراء حجاب وبينه وبينهم شملة مسدولة فقال له انّ الله تبارك وتعالى يقول ومـا كان لبشر ان يكلّمه الله الّا وحيـاً او من وراء حجـاب وانت قد تشبّهت بربّ الارباب فان كانت لك حاجة في الكلام فانزل الينـا وارفع عنّا الحجاب فنزل المنصور ورفع الاستار فقال له ابو العبّاس ايّ حاجة لك في نهب متاعي وضياع كتبي وتصفيدي من تينبكت الى هنا حتّى سقطت من فوق الجمل واندقّ ساقي فقال له المنصور اردنا كي تجتمع الكلمة وانتم في بلادكم من اعيانها فان اذعنتم اذعن غيركم فقال له ابو العبّاس هلّا جمعت الكلمة بترك تلمسان وما يليها من البلدان فانّهم اقرب اليك منّا فقـال له المنصور قال النبيّ صلى الله عليه وسلّم اتركوا الترك مـا تركوكم فامتثلنا الحديث فقال له ابو العبّاس ذلك زمان وبعده قال ابن عبّاس لا تتركوا الترك ولو تركوكم فسكت المنصور ولم يجد جواباً وانفض المجلس ولمّـا سرّح ابو العبّاس تصدّى لنشر العلم وهرع النـاس للاخذ منه ولم يزل بمرّاكش الى ان مات المنصور لانّه مـا سرّحهم من السجن حتّى شرط عليهم سكنى مرّاكش ولمّا مات المنصور اذن له ولده زيدان في الرجوع

الى بلاده فرجع اليها وكان يتشوّق لرويتها ويسكب العبرات عند ذكرها ولم يئس من روح الله في العود اليها ومن شعره متشوّقاً الى ما هنالك ومتشوّقاً الى تحصيل ذلك

ايا قاصداً كاغـوا فعج نحو بلدتي	وزمزم لهـم باسمى وبلّغ احبّتى
سلاماً عطيراً من غريب وشائق	الى وطن الاحباب رهطى وجيرتي
وعنّ اقاربـاً هنـاك اعزّة	على السادة الاولى دفنت بقرتى
ابي زيدهم شيخ الفضائل والهدى	وصنو بنى عمّى واقرب اسوتي
وسيفى بسيف البين سلّ لفقدهم	علىّ وهدّ الموت ركنى وعمدتي
ولا تنس عبد الله ذا النجد والندا	فقد مدّ حزني فقد قومى وعشرتي
وشبّان بيتى ساروا عن اخيرهم	الى مالك الاملاك في وقت غربتى
فوا اسفـاً منّى وحـزني عليهم	فيا ربّ فارحمهم بواسع رحمتى

ولمّا خرج من مرّاكش بقصد بلده شيّعه اعيان الطلبة فاخذ بعضهم بيده عند الوداع وقرا قوله تعالى انّ الذي فرض عليك القرءان لرادّك الى معاد على ما جرت به العادة من قراءتها عند وداع المسافر فيرجع سالماً فنزع ابو العبّاس يده بسرعة وقال لا ردّني الله الى هذا المعاد ولا رجعنى لهذه البلاد وسلّم عليهم وذهب لبلاده بسلامة وامان رحمة الله عليه

ذكر الخبر عن وقيعة المنصور بعرب الخلط

وغيرهم من اهل ازغار وسبب ذلك

هولاء العرب من الخلط ومختار وسفيان اصلهم من جشم القبيلة المشهورة وكانوا في القديم من شيعة بنى مرين وهم الذين اقدموهم من المغرب الاوسط

وفيه كان قرارهم وكانت لهم فى الدولة المرينيّة صولة ومرتبة فلمّا ادبرت ايّام بنى مرين واستولى على ملكهم ابو عبد الله محمّد الشيخ المهدي انحاشوا اليه واظهروا الخدمة والنصيحة له فلمّا جاء ابو حسّون المرينىّ بالاتراك حسبما شرّحناه قبل اوقعوا الهزيمة على المهدي من ابي حسّون كما سلف خلّفهم عن الجنديّة ووظّف عليهم الخراج ومحى اسمهم من ديوان الخدمة ونقل اعيانهم لمرّاكش واتّخذهم رهائن عنده ولم يزل الامر على ذلك الى ايّام المنصور فراى مقاتلتهم فى وادي المخازن وابلاءهم فيه البلاء الحسن فاختار نصفهم للجنديّة وابقى نصفهم الاخر في غمار الرعيّة ونقلهم لازغار فسكنّهم فيه فعتوا في البلاد واكثروا فيها الفساد ومدّوا ايديهم لاولاد مطاع فنهبوهم وضيّقوا ببنى حسن فكثرت الشكاية بهم للمنصور فضرب عليهم سبعين الفاً فلم يزيدوا الّا شدّة فبعث لهم ليرسلوا طائفة لتيكرارين فامتنعوا من ذلك فبعث القائد موسى بن ابي حمادة العمريّ لهم فانتزع الخيل منهم وابقاهم رجالة ثمّ حكم فيهم السيوف فمزقهم كلّ ممزق ومن ثمّ اخمدت شوكتهم ولانت لمغارم قناتهم

ذكر الخبر عن تجديد المنصور البيعة لولده محمّد الشيخ المامون

وفي شوال عام اثنين وتسعين وتسعماية جدّد البيعة لولده وليّ عهده محمّد الشيخ المامون على اخوته خصوصاً لانّهم كانوا في البيعة الاولى قبل البلوغ فاراد ان يستوثق له من اخوته بعد البلوغ حتماً لمادّة النزاع بينهم فارتحل المنصور من مرّاكش لتامسنا وبعث الباشا عزّوز بن سعيد الوزكيتى ليأتي بوليّ عهده من فاس فتوافى العضدان بتامسنا وباشر المنصور اخذ البيعة له بنفسه وحضر الاعيان واهل الحلّ والعقد واحضر المصحف الكريم الذي هومصحف عقبة بن نافع

الفهريّ رضى الله عنه وهو من ذخائر الخلفاء واحضر الصحيحَين البخاريّ ومسلم وقريء ظهير البيعة فتولّى قراتها الفشتاليّ وبجنبه القاضى ابو القاسم الشاطبيّ يفسّر ما شكل في لفظ الظهير ولمّا اخذ البيعة اخّر اولاده غد يومها فكتبوا خطوطهم عقبها بالموافقة على ذلك ورايت في بعض رسائل زيدان بن المنصور وقد الم بهذه البيعة فقال انّي حضرت بيعة محمّد الشيخ صاحب المغرب وحضر اولاد السلطان فاستحلفهم له الّا انا فانّه رضى الله عنه قال فلان لا يحلف ولا يحتاج اليه فما تامر به يفعله وعظم على ذلك اخوتي وظهرت في وجوههم الكراهية ولمّا فرغ المنصور من تجديد البيعة راى ان يرشح كلاًّ من اولاده للامارة ويقسم بينهم البلاد حتّى لا يبقى في نفوسهم احن ولا تنطوي قلوبهم على ضغائن فعقد لابي فارس شقيق المامون على السوس وسائر عمائره وعقد لابي الحسن علىّ على مكناسة وما والاها وعقد لزيدان على بلاد تادلا ثمّ عكس لامر اقتضاه فنقل زيدان لمكناسة ونقل ابا الحسن لتادلا ولم يزل امرهم على ذلك

ذكر الخبر عن ثورة الناصر بن الغالب بالله

على عمّه ابي العبّاس المنصور وما وقع في ذلك

كان الناصر في حياة ابيه الغالب خليفة على تادلا ونواحيها ولمّا توفّى ابوه قام بالامر اخوه المتوكّل كما استوفينا شرحه قبل هذا قبض المتوكّل على الناصر فاعتقله ولم يزل معتقلاً مدّة خلافته ولمّا انتزع المعتصم الملك من يد المتوكّل كما اسلفناه فيما مرّ سرّحه من اعتقاله واحسن اليه ولم يزل تحته في ارغد عيش فلمّا توفّى المعتصم يوم وقعة وادي المخازن فرّ الناصر لاصيلا وكانت بيد الكفرة ثمّ عبر عنها البحر لجزيرة الاندلس فكان عند طاغية قشتالة مدّة الى ان بعثه

الطاغية الى مليلية وزيّن له النفاق تتفرّق كلمة الاسلام فخرج الناصر لمليلية ونزل بها للثالث من شعبان عام ثلاثة والف فتسامعت به الغوغاء وسُقَط الناس وهمجهم فاقبلوا اليه يزفّون وسارعوا نحوه يهرعون فكثرت جموعه وتوافرت عساكره وشيوعه فخرج منها قاصداً لتازى فدخلها واتته القبائل المجاورة لها كالبرانس وغيرهم فتالّفوا عليه وتمالئوا على اعزازه ونصره ولمّا دخل تازى طلب اهلها بالمكس وقال لهم انّ النصارى يغرمون حتّى البيض ولمّا سمع المنصور بخبره احزنه امره وتخوّف منه غاية لانّ الناصر اهتزّ المغرب لقيامه وتشوّفت له العيون ميل القلوب عن المنصور لشدّة وطاته واعتسافه للرعيّة قال في ابتهاج القلوب في ترجمة الوليّ الصالح ابي الحسن علىّ بن منصور البوزيدىّ انّه كان يوماً سائراً مع اصحابه وهو راكب على بغلة فقال لهم يا فقراء اتسمعون ما تقول بغلتى انّها تصيح بالنصر لمولاي الناصر وكذلك الحجر والشجر وانّي ارى غير ذلك فكان الامر كما قال فقد اهتزّ كلّ شيء لقيام مولاي الناصر ثمّ قتل قريباً ولم يتمّ له الامر ثمّ انّ المنصور بعث لهم جيشاً وافراً فهزمهم الناصر واستوثق له الامر فامر المنصور وليّ عهده بمنازلته فخرج اليه في تعبية حسنة وهيئة تامّة فلمّا التقى الجمعان كانت الدائرة على الناصر فهرب على تازى وفرّ هارباً فاحتلّ بلجاية بليدة من عمل جبل الزبيب فلحق به وليّ العهد فلم يزل في مقاتلته الى ان قبض عليه فقتله وقطع راسه وحمل لمرّاكش وكان ذلك عام خمسة والف وذكر الشيخ ابو علىّ اليوسىّ في المحاضرات ما نصّه لمّا قام على المنصور ابن اخيه الناصر قال سيّدي احمد بن بلقاسم انصومعىّ انّ الناصر يدخل تادلا بمعنى دخول الملك فلمّا بلغ الخبر الى سيّدي محمّد الشرقىّ قال مسكين بابا احمد راى راس الناصر يدخل تادلا فظنّه الناصر فهزم الناصر وقطع راسه وحمل الى مرّاكش فدخل تادلا في طريقه ولمّا قتل الناصر فرح بذلك المنصور وجاءته الوفود بالتهنية وكتب الفتح لسلطان مكّة وهو السلطان حسن بن ابي انمى ولشيخ العارف بالله سيّدي احمد البكرىّ الصديقىّ

والامـام بدر الدين القرافيّ وغيرهم يعلمهم بمـا منحه الله من الفتح والعزّ والظفر وقال في ذلك الكاتب البليغ ابو عبد الله محمّد بن عمر الشاويّ

تهنّـا امير المؤمنين فقـد جرت لسطوتك الاقدار جرى السوابق
اضاءت بك الايّام واحلولكت على عـدوّك وارتجّت رءوس الشواهق
وذاك الذي قـد خيّب الله سعده تردّى فلم تنفعـه نصرة مـارق
فكان كما قد قيـل لاكنّ راسـه اتي سابقاً والرجل ليست بسابق

واشـار بذلك الى قول بعضهم في الوزير ابن الفرس حين قتل وصلب وقد رآه منكوس الراس

لقد طمح المهر الجموح لغـايـة تقطّع اعنـاق العتـاق السوابق
جرى ففرت رجلاه لاكنّ راسه اتي سابقاً والرجل ليست بسابق

ذكر الخبر عن بناء المنصور للبديع

ووقته وسبب ذلك

قال فى مناهل الصفا كان السبب الحامل للمنصور على بناء البديع وانفاقه فيه جلائل الاموال ونفائس الذخائر هو انّه اراد ان تكون لاهل البيت به مـاثرة وشفوف عـلى دولة الـبربر وغيرهم من المرابطين والموحّدين ومن بعدهم من بنى مرين فكان كلّ من اهل تلك الدول ابتنى بناء يحيي به ذكره ولم يكن لاهل البيت فى ذلك المعنى شئ تزداد به حظوتهم مع انّهم احقّ الناس بالجدّ الاصيل والسودد الاثيل فتصدّى لبنائه بقصد تشريف اهل البيت لانّ البناء كما قيل فى فوائده

همّ الملوك اذا ارادوا ذكرها من بعدهم فبألسُن البنيان
انّ البناء اذا تعاظم شانه اضحى يدلّ على عظيم الشان

ولمّا عزم على الشروع فيه احضر اهل العلم ومن يتهم بالصلاح فتحيّنوا اوان الابتداء ووقت الشروع فيه فكان ابتداء الشروع فى تاسيسه فى شوال خامس الاشهر من خلافته عام ستّة وثمانين وتسعماية واتّصل العمل فيه الى عام اثنين والف ولم يتخلّل ذلك فترة وحشر له الصنّاع حتّى من بلاد الافرنجة فكان يجتمع كلّ يوم من ارباب الصنائع ومهرة الحكماء خلق كثير حتّى كان بباب سوق عظيم يقصده التجّار ببضائعهم ونفائس اعلافهم وجلب له الرخام من بلاد الروم فكان يشتريه منهم بالسكّر وزناً بوزن وكان المنصور قد اتّخذ معاصير للسكّر ببلاد حاحة وشوشاوة وغيرها حسبما ذكره الفشتالىّ في مناهل الصفا واما جبصه وجيره وباقى انقاضه فانّها جمعت من كلّ ناحية حتّى انّه وجدت بطاقة فيها انّ فلاناً دفع صاعاً من جير حمله من تينبكت وظّف عليه في غمار الناس وكان المنصور مع ذلك يحسن للاجراء غاية الاحسان ويجزل صلة المعلّمين بالبناء ويوسع عليهم في العطاء ويقوم بمؤنة اولادهم كى لا تتشوّق نفوسهم وتتشعب انظارهم وهذا البديع دار مربّعة الشكل وفى كلّ جهة منها قبّة رائقة الهيئة واحتفّ بها مصانع اخر من قباب وقصور وديار فعظم بذلك بناؤه وطالت مسافته ولاشكّ ان هذا البديع احسن المباني واعظم الصنائع يقصر عنه شعب بواق وينسى ذكره غمدان ويخس الزهراء والزاهرة ويزري بقباب الشام واهرام القاهرة وفيه من الرخام المجزّع والمرمر الابيض المفضّض والاسود وكلّ رخامة طلى راسها بالذهب الذائب وموّه بالنضار الصافي وفرشت ارضه بالرخام العجيب النحت الصافى البشرة وجعل فى اضعاف ذلك الزلاج المتنوّع التلوين حتّى كانّه خمائل الزهر او برد موشّى واما سقوفه فتجسّم فيها الذهب وطليت الجدارات به مع بريق النقش ورائق الرقم بخالص الجص فتكاملت فيه المحاسن

واجرى بين قبائه ماء غيراسن وبالجملة فانّ هذا البديع من المباني المتناهية البهاء والاشراف المباهية لزوراء العراق ومن المصانع التى هى جنّة الدنيا وفتنة المحيا ومنتهى الوصف وموقف السرور والقصف وفى ذلك قيل

كلّ قصر بعد البديع يذمّ ... فيه طاب الجنى وفيه يشمّ
منظر رائق وماء نمير ... وثرى عاطر وقصر اشمّ
انّ مرّاكشاً به قد تناهت ... مفخراً فهى للعلا الدهر تسمّ

وفيه الاشعار المرقومة فى الاستار والابيات المنقوشة فى الخشب والزليج والجبص ما يسرّ الناظر ويروق المتامّل ويبهر العقول وعلى كلّ قبّة ما يناسبها وفى بعض القباب مفاخرة على لسانها لمقابلتها وتتبّع ذلك يطول لكن لا باس ان نلمّ بشيء هنا بثالة من ذلك الحوض ونخوض في بحار تلك البدايع بعض الخوض اذ في ذلك عبرة لمن اعتبر وترويح القلب بكيفيّة فعل الدهر بمن غبر فمن ذلك ما نقش خارج القبّة الخمسينيّة قال في نفح الطيب وانّما سمّيت بالخمسينيّة لانّ فيها خمسين ذراعاً بالعمل من انشاء الكاتب البليغ ابي فارس الفشتاليّ على لسان تلك القبّة المذكورة

سموت وخرّ البدر دوني وانحطّ ... واصبح قرص الشمس في اذني قرطا
وضعت من الاكليل تاجاً لمفرقى ... ونيطت الى الجوزاء فى عنقى سمطا
ولاحت باطواقى الثريا كانّها ... نثير جمان قد تتبّعه لقطا
وعدّيت عن زهر النجوم لانّنى ... جعلت على كيوان رجلى منحطا
واُجريت من فيض السماحة والندا ... خليجاً على نهر المجرّة قد غطا
عقدت عليه الجسر للفخر فارتمت ... اليه وفود البحر تغرق ما انطا
تنضنض ما بين الغروس كانّه ... وقد رقرقت حصباؤه جبّة رقطا

حواليه من دوح الرياض خرائد ... وعين تجرّي من حمائلها صرطا
اذا ارسلت لدى الفروع وفتّحت ... جنا الزهر لاح فى ذوائبها وخطا
يرنّحها من النسيم اذا سرى ... كما مال نشوان تشرّب اسفنطا
يشقّ رياضاً جادها الجدّ والندا ... سواء لديها الغيث اسكب ام ابطا
وسالت بسلسال اللجين حياضها ... بحاراً غدا عرض البسيط لها شطا
تطلّع منها وسط وسطاء ديمة ... هى الشمس لا تخشى كسوفاً ولاغمطا
حكت وحباب الماء فى صبباتها ... سنى البدر يبدو من نجوم السما وسطا
اذا غزلتها الشمس القى شعاعها ... على جسمها الفضّى نهراً هالطا
توسّمت فيها من صفاء اديمها ... نقوشاً كانّ المسك ينقطها نقطا
اذا آتسقت بيض القباب قلادة ... فانّي لها فى الحسن درّتها الوسطا
تكنّفنى بيض الدما فكانّها ... عذارى نضت عنها القلائد والريطا
قدود ولاكن زادها الحسن عريها ... واجمل فى تنعيمها النحت والخرطا
نمت صعداً تيجانها فتكسّرت ... قواورير افلاك السماح بها ضغطا
فيالك شأواً فى السعادة هائل ... فاكنافه رحل العلا والهدى مطا
وكعبة مجد شادها العزّ فانبرت ... تطوف بمغناها اماني الورى شرطا
ومسرح غزلان الصريم كناسها ... حنايا القباب لا الكثيب ولا السقطا
فلكن به ما طاب لا الاثل والحمطا ... ووسّد فيه الوشى لا السدر والارطا
تراه من المسك الفتيت مدبرا ... اذا مازجته السحب عاد بها خلطا
وان باكرته نسمة سرى ... الى كل انف عرف عنبره قسطا
اقرت له الزهراء والخلد وانتقت ... اواوين كسرى الفرس تغبطه غبطا
خباب رواق المجد فيه مطنّبا ... على خير من يعزى كخير الورى سبطا
امام يسير الدهر تحت لوائه ... وترسى سفائن العلا حيثما حطّا
وفتح اقطار البلاد بفيلق ... يفلّق هامات العدا حيثما خبطا
تطلّع من خرصانه الشهب فانثنت ... ذمائب ارض الزنج من ضوئها شمطا

كتائب نصر ان جرت لملمّة ... جرت قبلها الاقدار تسبقها فرطا
اذا ما عقدن راية علوية ... جعلن ضمان العز في عقدها شرطا
فما للسنا تلك الاهلّة انمّا ... سنابكها انفت مثالاً بها حطّا
يطاوع ايدي المَعْلَوَات عنانها ... فيعتاض من فيض الزمان بها بسطا
يد لامير المومنين بكفّها ... زمام يقود الروم والفرس والقبطا
ادار جدارا للعلا وسرادقا ... يحوط جهات الارض من رعيه حوطا

وقال ايضاً ممّا كتب بداخل القبّة المذكورة

جمال بدائعي سحر العيونا ... ورونق منظري بهر الجفونا
وقد حسنت نقشي واستطارت ... سنا يغشى عيون الناظرينا
واطلع سمكي الاعلى نجوما ... ثواقب لا تغور الدهر حينا
وجوي من دخان الندا الى ... على الارض الغياهب والدجونا
علوت دوائر الافلاك سبعا ... لذاك الدهر ما الفت سكونا
فصغت من الاهلة والحنايا ... اساور والخلاخل والبرينا
تكنّفني حياض مايحات ... امامي والشمائل واليمينا
يعيد حبلها الطرف انفساحا ... وفيها الفلك والكور والسفينا
تدافع نهرها نحوي فلمّا ... تلاقى البحر في جري دفينا
ترى شهب السماء بهنّ غرقا ... فتحسبها بها الدرر المصونا
وقد نشر الاحباب على سماها ... لئالي تزدري العقد الثمينا
فخرت وحقّ لي لما اجتباني ... لمجلس امير المومنينا
هو المنصور حائز خطل سبق ... وباني المجد بنيانا مكينا
وليث وغا اذا زار امتعاضا ... يروع زائره هندا وصينا
اذا امّت كتائبه الاعادي ... بعثن برعبه جيشاً كمينا

يدير عليهم من كلّ حرب ... تدقّهم رحى او مجنونا
امام بالمغارب لاح شمسا ... به الشرق اكتسى نورا مبينا
بقيت بذي القصور الغرب درّا ... يلوح بافقهنّ مدا السنينا
تحفّ بكم عواكف عند بابي ... ملائكة كراما كاتبينا
لك البشرى امير المومنينا ... ادخلوها بسلام امنينا

وقال ايضاً ممّا كتب ببهوها بمرمر اسود في بياض

لله بهو عزّ منه نظير ... لمّا زهى كالروض وهو نظير
وصفت نقوش حلاه رقش قلائد ... قد نضرتها فى النحور الحور
فكانّها والتبر سال خلالها ... وشى وفضّة تربها كافور
وكانّ ارض قرارها ديباجة ... قد زان حسن طرازها تشجير
واذا تصدّع ندّه نوراً فنى ... انماطه نور به مسطور
شاو القصور قصورها عن وصفه ... سيّان فيه خورنق او سدير
فاذا اجلت اللحظ فى جنّاته ... ترتدّ وهو بحسنه مسحور
وكانّ موج البركتين امامه ... حركات سجف صافحته دبور
صفّت بصفّتها تماثل فضّة ... مثل النفوس بحسنها تصوير
فتدير عن وصف الزلال معللا ... ليسري الى الارواح منه سرور
ما بين اساد يهيج زائرها ... واساود يسلو لهنّ صفير
ودحت من الانهار ارض زجاجة ... واظلّه فلك يضيء منير
راقت فمن حصبائها وفواقع ... يطفو عليها اللولو المنثور
ياحسنه من مصنع فبهاؤه ... باهى نجوم الافق وهى تنور
وكانّما زهر الرياض لجنبه ... حيث التفتّ كواكب وبدور
ولدستى الاسمى تخيّر وصفه ... فخر الورى وامامها المنصور

ملك اناف على الفراقد رتبته ... واظلّه فوق السماك سرير
قطب الخلافة تاج مفرق دولة ... رميت بمحلفها الملهام الكور
وجرى الى اقصى العراق لرعبها ... جيش على جسر الفرات عبور
نجل النبيّ ابن الرضى سليل من ... حقن الدماء وعفّ وهو قدير
بحر الندا لاكنه متموّج ... سيف العلا لاكنّه مطور
طود يخفّ لحمله ووقاره ... ولجيشه يوم النزال بثير
دامت معاليه ودام مجده ... طوق على جيد العلا مزرور
وتعاهدته من الفتوح بشائر ... يغدو عليه بها المسا وبكور
لا زال منزل سعده يرتاده ... نصر يدقّ لواءه المنشور
وجرت به مدحاً جياد مسرّة ... وادار كاس الانس فيه سمير

قال ايضاً وكتب في بعض المباني البديعيّة ما نصّه

معاني الحسن تظهر في المباني ... ظهور السحر في حدق الحسان
مشافّه في صفات الحسن افصحت ... تمتّ بها المغاني للغواني
بكلّ عمود صبح من لجين ... تكون في استقامة خوط باني
مفصّلة القدود مثلّثات ... مواصلة العناق من التداني
تردّت سائر المحاسن يزري ... بحسن السابريّ الخسرواني
وتعطو الخيزرانة من دماها ... بسالبة القطيع البرهماني
لمجدك تنتمي لاكن نماها ... الى صنعاء ما صنع اليدان
يدين لك ابن ذي يزن ويعنوا ... لها غمدان في ارض اليمان
غدت حرما ولاكن حلّ فيها ... لوفدكم الامان والاماني
مباني بالخلافة اهلّات ... بها يتلو الهدى السبع المثاني
هي الدنيا وساكنها امام ... لاهل الارض من قاصٍ وداني

قصور ما لها في الارض شبه وما في المجد للمنصور ثان

وقال ايضاً فيما كتب على المنصرية المطلعة على الرياض المرتفعة على القبّة الخضراء وكان انشاؤها عام خمسة وتسعين وتسعماية

باكر لدنّ من السرور كئوسها وارض النديم اهلّة وشموسا
واعرج على غرفى المنير سماءها تاق الفراقد فى حماى جلوسا
واذا طلعت باوجها قمر العلا لا ترتضى غير النجوم جليسا
شرف القصور بريقها لمّا اجتلت منّى على بسط الرياض عروسا
واغتظتّ بالمنصور احمد ضيعها ورداً تحيّر من بديع خَيْسا
ملك يرى كلّ الملوك ممالكا لعلاه والدنيا عليه خيسا
دامت وفود السعد وهى عواكف تصل المقيل لدنّ والتعريسا
وهناك في شرف الخلافة دولة تلفى برويتها طلائع عيسا

وقال بعض الكتّاب تما طرز به الا ستارالمذهّبة المحكمة الصنعة لتستر بها النواحى الاربعة من القبّة الخمسينيّة وتسمّى هذه الاستار عند اهل المغرب بالحائطىّ

ففى الجهة الاولى

متّع جفونك في بديع لباس وادر على حسنى حمى الكاس
هذه الربا والروض من جرعائها علىم اهتدى بالعارض البجاس
انّى لروض ان يروق بهاؤه مثلى وان يجرى على مقياس
فالروض تغشاه السوام وانّما تاوي الى كنفى ظباء كناس

وفي الجهة الثانية

من كلّ حسن كالقضيب اذا انثنى تزري بعضّ البانة المّياس

obeikandl.com

ولقد نشرت على السماك ذوائبي ونظرت من شرز الى الكنّاس
وجررت ذيلي بالمجرّة عابثا فخراً بمخترعي ابي العبّاس
ما نيط مثلي في القباب ولا ازدهت بفتى سواه مراتب وكراس

وفي الجهة الثالثة

ملك تقاصرت الملوك لعزّه ورماهم بالذل والانغماس
غيث المواهب بحر كلّ فضيلة ليث الحروب معسر الاوطاس
فرد المحاسن والمفاخر كلّها قطب الجمال اخو الندا والباس
ملك اذا وافى البلاد تراجعت منه الوهاد بعاطر الانفاس

وفي الجهة الرابعة

واذا تطلع بدره من هالة يغشى سناه نواظر الجلّاس
ايّامه غرر تجلّت كلّها ابهى من الاعياد والاعراس
لا زال للمجد السنى يشيده ويقيم مغناه على الاساس
ما مال بالغصن النسيم وحيّيت درر الندا في جيده المياس

وقال بعض الكتّاب ممّا نقش في عضادتَيْ باب من الابواب

يا ناظراً بالله قف وتأمّل وانظر الى الحسن البديع الاكمل
واذا نظرت الى الحقيقة فلتقل السرّ في السكّان لا في المنزل

وقال الكاتب البليغ ابو فارس عبد العزيز بن محمّد بن ابراهيم الفشتاليّ ممّا نقش ببعض الابواب

هذي وفود السعد نحوي تنتمي وطلائع البشرى لبابي ترتمي

وسمت الى عفّان عرفك مثل ما يسمو الحجيج الى سقاية زمزم
حطّت بمصراع السعود بشائر لاحت على الشرفاء مثل الانجم
اولى بضع ان تقول ولا تبل فبديع احمد جنّة المتنعّم

قال الفشتالي لمّا عرضتها عليه استحسنها الاّ انّه كره لفظة الجنّة وتغيّر عليها كثيراً وكان الفراغ من بناء البديع عام اثنين والف وفى تاريخه يقول الوزير الفقيه الاديب ابو الحسن علىّ بن منصور الشياظمىّ وهو ممّا نقش فى باب الرخام احد ابواب البديع

الحسن لفظ وهذا القصر معناه يا ما اميلح مرءاه وابهاه
فهو البديع الذي راقت بدائعه وطابق اسم له فيه مسمّاه
صرح اقيمت على التقوى قوائمه ودلّ منه على التاريخ معناه
ولاح ايضاً وعين الحفظ تكلؤه تاريخه من تمام قل هو الله

وقال الوزير المذكور ايضاً فيما نقش على احد ابواب البديع

باب اتى كبراعة استعلال وكانّما القصر المشيد التالى
ولذلك سمّى بالبديع وجاء بالاغراق والتجنيس والايغال
واتى التمام فقلت من تاريخه بيت بلا عقد ولا اشكال
صرح على التقوى من الله ابتنى في طالع للسعد والاقبال

وقال ايضاً فيما كتب بنباح قبّة الزجاج

ان شئت تاريخ كمال البديع فقل ايوان احمد ايوان السعادات

وقال ايضاً في تمام البديع مبيّناً له

يا مالكاً ملكه فيمن ملك كطلوع الفجر من بعد الحلك
تمّ هذا القصر فاسكنه على حسن حال بدوام الملك لك

قال فى نفح الطيب اخترع المنصور من الصنايع ثلاثة اشياء فجاءت غريبة الشكل بديعة الحسن وهى البديع والمسرّة والمشتهى وممّا قال المنصور فى ذلك مورّخاً

بستان حسنك ابدعت زهراته ولكم نهيت القلب عنه فما انتهى
وقوام غصنك بالمسرّة يثنى ياحسنه زمانه المشتهى

والذي ذكره صاحب كتاب البيان المغرب عن اخبار الغرب وهو الشيخ ابو عبد الله بن عذاري الاندلسيّ حسبما رايته في السفر الثاني انّ اوّل من انشا المسرّة التى بظاهر جنان الصالحة عبد المومن بن علىّ كبير الموحّدين قال وهو بستان عظيم طوله ثلاثة اميال وعرضه قريب منها فيه كلّ فاكهة تشتهى وجلب اليه الماء من اغمات واستنبط له عيوناً كثيرة قال ابن اليسع وما خرجت انا من مرّاكش في سنة ثلاث واربعين وخمسماية الاّ وهذا البستان الذي غرسه يبلغ مبيع زيتونه وفواكهه ثلاثين الف دينار مومنيّة بحسب رخص الفاكهة بمرّاكش ولعلّ المنصور جدّد معالم المسرّة بعد اندراسها وافاض سجال الحياة على ميّت اغراسها وكان المنصور يفتخر بالبديع كثيراً وبنوه بعده كذلك وفي ذلك يقول ابو فارس الفشتاليّ

هذا البديع يعزّ شبه بدائع ابدعتهنّ به فجاء غريبا
اظنى الغزالة حسنه حسداً له ابدى عليه للاصيل شحوبا

شيّدتهنّ مصانعاً وصنائعا انجزن وعدك للعلا المرقوبا
وجريت في كلّ الفخار لغاية ادركتهنّ وما مسسن لغوبا
فانعم لملكك فيه دام موفّرا تجنى به فنن النعيم رطيبا

ولمّا اكمل المنصور البديع وفرغ من تنميق بردته وتطويق حلّته صنع مهرجاناً عظيماً ودعا الاعيان والاكابر فقدّم لهم من ضروب الاطعمة وصنوف الموائد وافرغ عليهم من العطايا ومنحهم من الجوائز ما لم يعهد منه قبل وكان ممّن دخل فى غمار الناس رجل من البهاليل ممّن كانت له شهرة فى الوقت بالصلاح فقال له المنصور عابثاً به كيف رايت دارنا هذه يا فلان فقال له اذا هدمت كانت كدية كبيرة من التراب فوجم لها المنصور وتطيّر منها وقد ظهر مصداق ذلك على يد السلطان المظفّر مولانا اسماعيل بن الشريف فانّه امر بهدمه عام تسعة عشر وماية والف لموجب يطول شرحه فهدمت معالمه وبدّلت مراسمه وغيّرت محاسنه وفرّق جموع حسنه وعاد حصيداً كانّ لم يغن بالامس حتّى صار مرعىً للمواشى ومقيلاً للكلاب ووكراً للبوم وحقّ على الله ما رفع شيئاً من الدنيا الّا وضعه ومن العجائب انّه لم تبق بلد بالمغرب الّا ودخلها شئ من انقاض البديع ولقد تذكّرت بهذا ما حكاه بعض مؤرّخى الاندلس ان الزاهرة التى بناها المنصور ابن ابي عامر وهى من عجائب الدنيا في اتقان البنيان مرّ عليها فى ايّام المنصور ابن ابي عامر بعض اهل البصائر وهى فى غاية العمران والازدهاء بساكنيها فقال يا دار فيك من كلّ دار فجعل الله منك في كلّ دار قال فضرب الدهر ضربانه وسلّط عليهم ايدي العدوان فهدمت وتفرّقت محاسنها حتّى نقل بعض انقاضها للعراق . ولمّا دخلت البديع مقفلى فى الرحلة ورايت ما هالنى قرات عليها ابياتاً انشاها محيي الدين بن عربي فى كتاب المسامرات لمّا دخل الزاهرة فوجدها متهدّمة

ديار باكناف الملاعب تلمع وما ان بها من ساكن وهى بلقع

ينوح عليه الطير من كلّ جانب فتصمت احياناً وحيناً ترجع
فخاطبت منها طائراً متفرّداً له شجن في القلب وهو مروّع
فقلت على م ذا تنوح وتشتكى فقال على دهر مضى ليس يرجع

وانشدت ما انشده ابن الابّار في تحفة القادم

قلت يوماً لدار قوم تفانوا اين سكّانك الكرام علينا
فاجابت هنا اقاموا قليلا ثمّ ساروا ولست اعلم اينا

وانشدت ايضاً قول الشاعر

وقفت بالزهراء مستبصراً معتبراً اندب اشتاتا
فقلت يازهراء الا فارجعى قالت وهل يرجع من فاتا
فلم ازل ابكى وابكى بها هيهات يغدي الدمع هيهات
كانّما اثار من قد مضى نوادب يندبن امواتا

فتاملت لفظ البديع فوجدت عدد نقط حروفه بحساب الجمل ماية وسبعة عشر وهذا القدر هو الذي بقى فيه البديع قائماً عامراً فانّه فرغ منه عام اثنين والف فمدّة بقائه بعد تمام بنائه ماية وسبع عشرة سنة على عدد اسمه وذلك من غريب الاتّفاق والبقاء والدوام والملك التامّ لله الملك الديان لا يسئل عمّا يفعل وهم يسالون